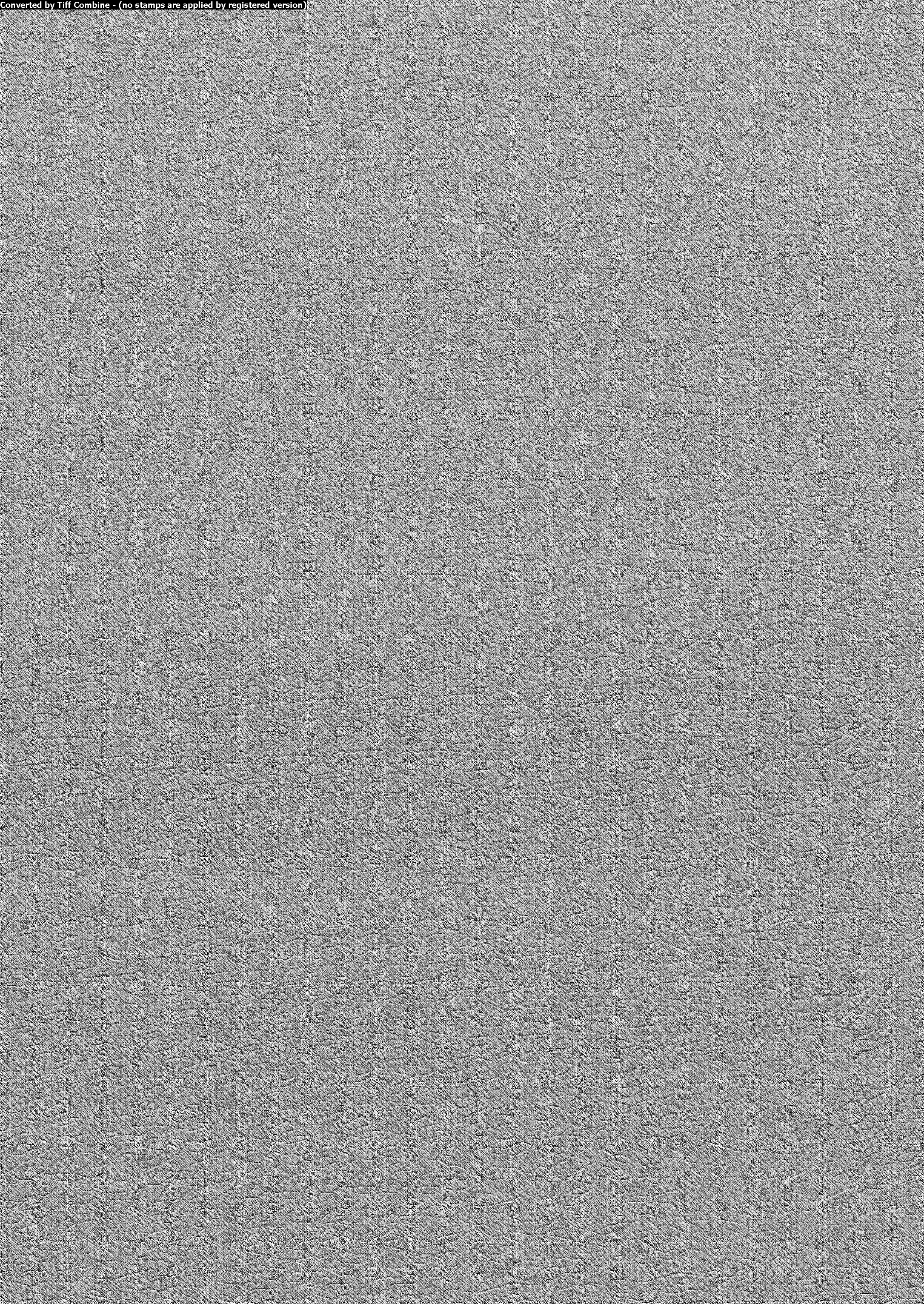










شعراء الإسكندرية في العصور الإسلامية

تأليف عبد العليم القباني
تقديم الدكتور محمد طه الحاجري







مقدمة

بقلم الدكتور : محمد طه الحاجرى

المدائن كالناس : لكل مدينة طابعها وملامحها وقسماتها ، أو قل شخصيتها التى تنفرد بها ، كما ان لكل فرد من الناس شخصيته ، التى تميزه عن غيره وتحيطه بجو خاص به ، وكما تتكون شخصية الفرد من عوامل الوراثة والبيئة وملابسات الحياة المختلفة ، كذلك الامر بالقياس الى المدينة ، وكلما كانت هذه العوامل اعرق وابعد ايغالا وأكثر تداخلا ، كان طابع شخصيتها أكثر انفرادا وأشد تميزا وبهذا نجد بين المدن ـ كما نرى بين الناس ـ مدنا أوساطا ، تقل الفروق بينها وتكثر وجوه التشابه فيها ، وأخرى بائنات بنفسها ، منفردات بما خط الزمن عليها من ملامح عميقة معقدة متشابكة ، لأنه قد اجتمع لها من الاسباب والملابسات فى خلال التاريخ الممتد المتطاول ، مالم يجتمع للجمهرة الكبرى ، ولأنه كان لها من قوة الحياة ما استطاعت ان تصمد به لاحداث الزمن وصروف الايام ٠

والاسكندرية من أعرق المدن تاريخا ، وأكثرها فى أحداث الزمن مشاركة ، وقد كان لها من موقعها ، وما أتاحة لها هذا الموقع على مر القرون ما جنبها أن تنماع فى غيرها ، كما جعلها من ابرز المدن شخصية ، وأقواها طابعا ، وأشدها اثارة للباحث والمتأمل والمتطلع ٠

ولهذه الشخصية جوانبها الكثيرة ومظاهرها المختلفة ولكن الادب هو ولاريب أول مظاهرها ، اذ كان أشدها اتصالا بها وأقواها تعبيرا عنها

وتمثيلا لها ، وما شيء أدل منه ، في حقيقة الأمر عليها ، اذ كان انما ينبع من اغوارها البعيدة متغلغلا في سائر جوانبها ٠

وهذا الكتاب الذى يسعدنى أن أقدم له بهذه الكلمات يعرض جانبا من جوانب هذا المظهر ، وهو الشعر السكندرى فى العصر الاسلامى ٠

ولعل من حسن التوفيق ان يكون صاحب هذا البحث والمضطلع بعبئه شاعرا سكندريا مطبوعا ، والشاعرية والسكندرية صفتان أحسب أن لابد منهما فى مثل هذه الدراسة لتمضى فى سبيلها على بصيرة ولتؤدى غايتها على هدى من الحس الدقيق والايمان الوثيق ٠

أما الشاعرية التى تتضمن الحس المرهف والذوق الفنى ، والقدرة على التغلغل فى بواطن الاشياء والاندماج فى حقائق الحياة والاستغراق فى العوالم النفسية ، واستشفاف الخلجات الغامضة واللمحات العابرة ، فهى فيما أحسب ، من أول ما يمكن للباحث فى هذا الموضوع من بحثه ، ويضع يده على الحقائق المستترة ، هذه الشاعرية جدير بها أن تهيىء له جو الموضوع الذى يدرسه ، وتهبه القدرة على أن يعيش مع الشعر الذى يؤرخه بوجدانه ومشاعره ٠ فهو منه فى عالم حى يناقله الحديث ، ويساجله القول ، ويشعر فيه بمعانى المودة والحب تغمر قلبه ، وتفيض على وجدانه فتجلو له كل شيء فيه ٠

وأما السكندرية ـ بما تربط بينه وبين المدينة التى يؤرخ حياتها الادبية برباط روحى وثيق ، وما تعكس من شخصيتها على شخصيته ـ فانها أيضا من أوثق الاسباب التى تمثل ما يقصد من أمر هذه الحياة الادبية فيها ٠

ان ارتباط الباحث بموضوع بحثه هو أول أسباب التوفيق فيما يعالج منه ، وهو فى مثل هذا الموضوع الفنى امر لابد منه ٠ ولابد ـ فيما نحسب ـ ان نقوى هذا الارتباط حتى يصل الى حد الهوى الذى يمازج النفس ويداخل الروح ، ويصرف القوى النفسية فى تتبع أطراف الموضوع وتعقب اشتاته ٠

وقد اجتمعت للاستاذ عبد العليم القبانى هاتان الصفتان على أمثل صورة ، فهو شاعر مطبوع بكل مافى هذه الكلمة من معنى ، وشاعريته أصيلة بكل ما تتضمنه من صفات ، وهو سكندرى صميم ، عاش حياة الاسكندرية فى أصل جوانبها ومارس صور هذه الحياة ممارسة متصلة بأعماق نفسه ، وأحب هذه المدينة حبا يصل به الى حد الفتنة بها ٠ واحيانا

الى حد العصبية التى ربما جعلته يهدر سائر المدن وغيرها ، والتى نحس فى بعض مواطن هذا الكتاب اصداءها ٠

ولكن هناك صفة ثالثة لابد منها ولا معدل عنها فى معالجة هـــــذا الموضوع من موضوعات التاريخ الادبى ، وهى الصفة العلمية التى ينبغى أن تأخذ مكانها الى جانب الصفتين الأخريين متعادلة معهما ، مقدرة موقفها منهما ٠

ذلك أن هذا الموضوع يعتمد ـ أول كل شىء ـ على استكشاف الآثار الادبية السكندرية التى طوتها القرون ، واستجلاء ملامحها وذلك هو العمل العلمى الاول الذى يحتاج الى قدر من الخبرة والمران والتجربة غير قليـــل ، ثم بعد ذلك تتبع الاعمال العلمية من التحقيق والتصنيف وتتبع الصفات المميزة وتعرف العلاقات التى تربط هذه الاثار بعضها ببعض ، والعلاقات التى تصل ما بينها وبين ما حولها ، الى غير ذلك مما تفرضه طبيعة البحث العلمى الادبى الذى ينتهى بعد ذلك كله الى ابراز الصورة الادبية التى يراد عرضها ، وقد اجتمعت اجزاؤها وتلاءمت مقاديرها ، ودبت الحيـــاة فيها ، فاذا هى كائن حى يبعث الاعجاب والحب والنشوة ٠

وقد كنت أشفق على الاستاذ عبد العليم القبانى ، حيث كان يعـــالج موضوعه من هذه المرحلة ، اذ كنت أخشى ان يكون شـــأنه شأن كثير من الشعراء الذين تستغرقهم شاعريتهم فلا تدع للوجهة العلميـــة مكانا فى انفسهم ولا عليهم فى ذلك فالشعر وحده جدير أن يكون فضيلة قائمـــة بنفسها ربما تضاءلت الى جانبها بعض الفضائل الاخرى ٠

ولكن الاستاذ القبانى استطاع بثقافته الأدبية الواســـعة وبصبره ودأبه واصراره على المضى فى سبيله الى الغاية التى يرجـــوها أن يذلل الصعاب ويقتحم العقبات ، ويبلغ من المنهج العلمى هـــذا المبلغ الجدير بالتهنئة على النحو الذى نراه فى هذا الكتاب ٠

كما استطاع الى جانب ذلك ان يوازن بـين العنصر الفنى والعنصر العلمى ، وبذلك أتاح للقارىء هذه اللوحة التى تجمع صور الحياة الادبية فى الاسكندرية فى عهودها الاسلامية ماعدا العهد الحديث ٠ ومكن له بذلك من ان يعيش فترة طيبة فى عهودها هذه ، كما قدم له طائفة من شـــعراء الاسكندرية وقد نفخ الحياة فيهم ٠ فمكن له من أن يصحبهم ويســـتمتع بصحبتهم وقد أعفاه مما تجشمه من عناء الدرس ومتـــاعب البحث التى طوعت له رسم هذه الصور ، وتمثل هؤلاء الشعراء فقد طواها دونه ٠

ولا يكاد ينتهى القارىء من متابعة الصور التى عرضها المؤلف الشاعر ويقف محزونا عند الصورة الاخيرة التي رسم بها الاسكندرية وقد تضاءلت وانكمشت وفقدت كل معنى من معانى الحيـاة ، حتى يتطلع الى صورة بعثها وانتفاضتها فى النهضة الحديثة • يمسح بها ماران على قلبه من الاسى • وهى صورة رائعة جدير بالاستاذ القبانى ان يجلـوها بأدق ملامحها وفى اجمل معارضها •

القسم الأول

ملامح قديمة



- ١ -

انتهى الصراع بين الآشوريين والنوبيين بجلائهم جميعا عن أرض مصر فى أوائل القرن السابع قبل الميلاد ، واستقر الأمر بأيدى اثنى عشر أميرا مصريا من حكام الاقاليم ٠

وكانت هذه أول قيادة جماعية لو قدر للذين قاموا بها أن يكونوا من المؤمنين بحق وطنهم عليهم ، غير أن نبوءة تحدث بها الناس فى ذلك العهد مؤداها (أن الامير الذى يشرب النبيذ المقدس فى قدح من البرنز فى عيد الاله « بتاح » سيرتقى وحده عرش الفراعنة بمعونة رجال من البرنز) ٠

ولقد ألقت هذه النبوءة فى أذهان الحاكمين المؤتلفين ظلالا قاتمة شغلت أذهان الأمراء الى حين ، ذلك أنه من الممكن أن يستأثر فرعون واحـــد بهذا السلطان دونهم لو مهدت الأقدار له الى ذلك سبيلا ٠٠

ثم دار الزمن دورته ، وأتى على الناس حين من الدهر نسوا فيـــه قصة هذه النبوءة ، لكن الذى حدث بعد ذلك كان غريبا ٠٠ فقد اجتمع الأمراء الاثنى عشر ليحتفلوا بالعيد فى معبد « بتاح » وأعد الكاهن الكئوس المصنوعة من الذهب ليصب فيها من نبيذ الآلهة ولكنه عندما راح يملؤها، اكتشف أن النسيان غلبه على واحد منها ، وبذلك وجد الأمير « ابسماتيك » نفسه بغير كأس ٠٠

وخشى « ابسماتيك » أن تفوته بركة الآلهة فتناول خوذته وطلب من الكاهن أن يصب فيها شرابه ، وأعجب الكاهن بسرعة خاطر الأمير وصب له الشراب فى الخوذة البرنزية ٠٠٠

وانتبه الأمراء على صدى النبوءة القديمة ، فها هو ذا النبيذ المقدس فى كأس من البرنز على شفتى الأمير ابسماتيك ٠

وأقبل بعضهم على بعض يتآمرون ٠٠ واســـــتقر رأيهم على نفى ابسماتيك الى مستنقعات الشمال ، وكان ان اختاروا له « راقودة » ، (١)

---

(١) راقودة ــ كوم الشقافة وكرموز الآن ٠

قرية على شاطىء البحر لتكون له مستقرا (١) ...

غير أن سفنا تحمل قراصنة من اليونانيين ألقت مراسيها بهذه القرية وعلى مقربة من منازل ابسماتيك نزل رجالها وعلى أجسادهم دروع من البرنز تلمع فى شعاع الشمس ...

كان هؤلاء الرجال لصوصا . ولكن الأمير المنفى رأى فى دروعهم البرنزية الرمز الثانى من رموز النبوءة ، فاستدناهم منه وقربهم اليه . وأكرم وفادتهم ، وقص عليهم قصته ، وعقد معهم حلفا ، ان يخلصوا له ، وقد استطاع فيما بعد بمعونة حزبه من المصريين أن يتغلب على رفاقه وأن يضع الأسس لبناء الاسرة السادسة والعشرين .

عرف الاغريق اذن راقودة قبل الميلاد بما يقرب من سبعة قرون ، وكان لابد لثقافتهم وأفكارهم أن تترك أثرا متفاعلا مع ثقافة وأفكار السكان الأصليين بحيث يمكن القول بأن الصورة الحضارية لهذه القرية أصبحت ذات طابع خاص تتميز به عن كثير من القرى المصرية .

- ٢ -

وامام راقودة هذه كانت جزيرة « فاروس » (٢) وأول وصف فى التاريخ لهذه الجزيرة انطلق من قيثارة الشاعر الخالد « هوميروس » فى النشيد الرابع من الأوديسة ، وذلك حيث يقول ...

هناك جزيرة فى البحر الصاخب تجاه مصر
يطلق عليها الناس اسم فاروس
تبعد بقدر ما تسيره السفن السريعة فى يوم كامل
عندما تهب خلفها ريح قوية ..
هناك فى الداخل ميناء ذو مرسى بديع

---

(١) هناك رواية أخرى تقول انه نفى الى المستنقعات «بوتوس» البرلس الآن ، ولكنا أخذنا بالرواية الاولى وأيا كان صواب احدى الروايتين فان من المعروف أن الاستيطان اليونانى بدأ ينتشر فى عهد هذا الملك وأن راقودة كانت مرسى تجاريا معروفا لهم وأن مستعمراتهم اتخذت من الدلتا مجالا فى ذلك العهد وكانت نقراتيس التى لاتبعد كثيرا عن الاسكندرية من ابرز هذه المستعمرات .

(٢) فاروس جزيرة أمام راقودة ومكانها الآن حى رأس التين ، وما يجاوره .

منه ينزل الرجال والسفن الرائعة الصنع الى البحر

بعد أن يكونوا قد أخذوا مئونتهم ..

من الماء الذى لا ينفذ منه ضوء الشمس (١) .

ومن قبل كانت فاروس سكنا لاله البحر « بروتيوس » وتتحدث عنه الأساطير فتقول : انه كان كريما يقيم الحفلات الساهرة فى ضوء القمر حيث تحتشد حوريات الماء فى الجزيرة لينعمن بمرح شاعرى ســـاحر ، وهناك أسطورة رواها « أروبيد » فى مسرحيته « هيلين » تقـــول ان « باريس » الفتى اختطف « هيلين » الجميلة زوجة « مينلاوس » وجاء بها الى « فاروس » فى نزهة ولكن الاله « بروتيوس » أبى أن يغمض عينيه على هذا الجموح الأرعن ، وفى الوقت نفسه أراد ألا يجرح شعور الضيف المغــامر ، فودع « باريس » الى السفينة بعد أن جسد طيفا من « هيلين » وتركه يسافر معه ، واستبقى « هيلين » الحقيقية فى الجزيرة حتى عاد زوجها من حروب « طروادة » فسلمها اليه عزيزة مكرمة (٢) .

و « مينلاوس » هذا يروى لنـــا فى « الأوديســـة » كيف قذفت به الرياح الى « فاروس » ثم ارتدت عنه وتركته فى مجاهل من حيرته ، ثم كان انعطفت عليه « ايدوتيس » عروس البحر ، ودلته على الوســـيلة التى يستخلص بها نصـــيحة والدها « بروتيوس » حتى تأتمر الرياح بأمره ، ولقد حاول أبوها فى أول الامر أن يتخلص منه ، فتحول الى أسد ضخم ، والى تنين مهول ، والى شجرة وارفة الظلال ، والى ماء صاف لا يمكن أن تحتويه يد ، ولكن هذا كله ذهب سدى أمام اصرار « مينلاوس » وصموده .. واخيرا تكلم « بروتيوس » فأدلى اليه بما يجب عليه أن يصـــنعه .. ففعل .. وعندما تنفس الفجر ذو الانامل الوردية كانت الآلهة قد سخرت الرياح لمينلاوس ومن ثم انحدرت سفائنه فى طريقها الى « اسبرطة » (٣) .

واذن ففى « فاروس » تفاعلت ثقافة الوافدين اليها مع ثقافة أبنائها ، هذا بالاضافة الى ماضيها الأسطورى الجميل ، وكان من هذا التفـــاعل أن قامت بها حضارة تتفق الى حد ما وحضارة راقودة ..

---

(١) من ترجمة الاستاذ أمين سلامة للاوديسة .

(٢) خلاصة ترجمة للأستاذ على نور فى مقدمة كتاب الاسكندرية الذى صدر عن مصلحة الاستعلامات .

(٣) لخصنا هذه الأسطورة عن الأستاذ صديق شيبوب فى كتابه « معارك الاسكندرية » .

- ٣ -

ولنقف قليلا حتى تنتهى احدى دورات الزمان فان عاصفة هوجاء هبت من بلاد « فارس » يقود أعنتها « قمبيز » الطاغية ، قد فغرت فاها فى نهم ، لتلتهم خيرات الأرض الطيبة فى وادى النيل ، ثم مالبثت بعد أن لوت أعناق الحاكمين أن أناخت بكلكلها على صدور المواطنين من سنة ٥٢٥ ق٠م٠ الى ٣٣٢ ق٠م٠ ، حتى اذا ما انحنت الرءوس من ذلة ومشى اليأس فى دروب القرى وطرقات المدن ، وتطلع الناس الى الغيب يتلمســـــون النجدة من خلاله ، تفتحت أسماع الارض على أبواق جيش لجب ، يقوده شاب مقدام لم يعرف الهزيمة قط ٠

ولقد رأت فيه « منف » منقذا لها من جـــــور الفرس ولهذا أعلن كهنتها عام ٣٣٢ ق٠م٠ أن « الاسكندر الاكبر » قائد هذا الجيش ، هو ابن أكبر الآلهة ، « ابن آمون » ٠

فتلك كانت نبوءة تحدثت بها امه اليه من قبل ثم تمشت فى خياله زمنا ، يفر تحت ظلالها من أصداء مناقشات غامزة جارحة ، كانت ترتفع فى بلاط أبيه « فيليب المقدونى » ثم ظلت تراوحه ، حتى اســــتقرت على شفتى كاهن آمون وهو يقدمها بين يديه عرفانا بالجميل ٠

ومن ثم تشبث الاسكندر بها الى الحد الذى دفعه الى قتل واحد من أعز أصدقائه عندما جرؤ أن يناقشه فى صحة هذه النبوءة فى أحد مجالس الشراب ٠

زار الاسكندر معبد آمون فى سيوه ثم ركب سفينة وانحدر مع مياه النيل صوب البحر ثم اتجه غربا الى جزيرة فاروس التى قرأ عنهــــا فى أوديسة هوميروس ورأى راقودة أمامها يفصل بينهما الموج فأراد أن يربط بين القريتين بأرض تصلح لاقامة المدينة الجديدة التى شاء أن يجعل منهـــا نقطة اتصال بين مصر والمدن الاغريقية عبر البحر ، وكان أن أمر بردم مابين راقودة وفاروس (١) وأصدر الاسكندر أمره الى « دينوكراتيس » المهندس أن يخطط المدينة العظيمة التى شاء أن يخلع عليها اسمه « الاســـكندرية » والتى قدر لها أن تصبح عاصمة لهذا الجزء من العالم ومركز الاشعاع لمــا حولها مدى ألف سنة مما يعدون ٠

---

(١) بعض المؤرخين ينكر هذا ويقول ان الذى امر بالردم وبانشاء الهيبستاد هو «سوتير» بطليموس الاول ٠

وخطط المهندس الكبير شوارع المدينة مستخدما فى تخطيطها الدقيق الأبيض فيما يقول الرواة ‥ ويقولون ان أسرابا من الحمـــام هبطت على الدقيق وأتت عليه ‥‥ ويقولون فى قصة أخرى أن الاســـكندر نفسه هو الذى رسمها بالدقيق على مائدة فى الهواء الطلق فالتهمت الرســـم أسراب من الحمام العابر (١) وحين تشاءم بعض الناس ، وقالوا ان هذا نذير سوء ‥ أول العرافون رمزية هذا الحادث بالمعرفة التى ستنقل من ينابيع العلم فى هذه المدينة الى مختلف بقاع الأرض ٠

- ٤ -

واقيمت المدينة وارتفع بنيانها وصعدت شـــــامخة تطرق أبواب السماء ، ثم طوى الموت صحيفة الاسكندر ، وهـــو بعد فى عمر الزهور ، وذهبت أعماله ضبابا فى مجاهل الزمن ، ونسى النــاس الآلاف المؤلفة من القتلى ، أولئك الذين ذهبوا ضحية بسالة جنوده ، ولقد أباد الزمن فيما أباد ما أقيم من نصب وتماثيل تمجيدا للقائد العظيم ولم يبق من كل هذا الملك العريض الا « الاسكندرية تلك المدينة الهادئة التى تحتضن الازرق الفضى فى اغراء فاتن بهيج ‥‥ »

وورث خلفاؤه من البطالمة « مصر » وانتهجوا فى الارتقاء بها وبالمدينة التى تحمل اسم رائدهم الكبير نهجا فيه كثير من الوفاء ، فاستقدموا اليها أكابر علماء عصرهم ، وخلاصة أدباء اليونان ، وكبار فنانيها ، وأنشـــئوا المعابد الضخمة ودار العلم المشهورة والمكتبة التى خلد ذكرها على الزمان ‥

وأصبحت الاسكندرية مقرا للحكم ، وفى أرجائها اختلطت أمشاج من الناس ، من المقدونيين ولهم عزة الملك وسيطرة الحـــــاكمين ، ومن اليونانيين ولهم كذلك ثقافتهم التى أنماها فيهم أساتذة علموا الدنيا من امثال سقراط وأفلاطون وأرسطو وســــوفوكليس ، ومن المصريين ورثة ديانة رع وفلسفة امحوتب وتلاميذ كهنة منف وعين شمس ومن طوائف أخرى تركت آثارها فى تكوين الحضارة المشرقة ، وقد أصبحت الاسكندرية منذ العقد الثانى من القرن الثالث ق٠م٠ أعظم مراكز الحضارة اليونانية‥

وحضارة الاسكندرية وان كانت تعد امتدادا لحضارة آثينا الا أنها كغيرها من سائر مراكز الشرق الثقافية مزجت بين حضارة الشرق والغرب،

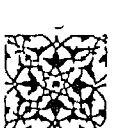
---

(١) لايهمنا هنا صدق الروايتين بقدر ما تهمنا دلالة الخبر المعنوية ٠

ثم احتلت مكان القيادة بين هذه المراكز جميعـــــا ، ذلك ان مركز مصر الجغرافى وازدهار اقتصادها ، وتشجيع حكامها للحركات العلمية والأدبية، جعل الاسكندرية جديرة بهذه القيادة ، بل انه بالقدر الذى كانت ترتفع به مكانة الاسكندرية ، كانت تهبط به مكانة أثينا ، وعلى أصداء من هــــذه الحضارة المتألقة ، قامت حياة مترفة ناعمة ، تركت ملامحهافى كثير مماوصل الينا من فن جميل أصيل ، كمـا أوحت أمسياتها الساحرة العبقة بعطور فاتنات الليل الى كثير من كتاب أوربا فى أوائل عصرنا الحديث بموضوعات شيقة نضرب لها أمثلة بقصة « أفروديت » وغيرها ٠

وكذلك نجد من الاتجاهات التى وضحت عند شعراء الاسكندرية فى ذلك العهد أن الشعر أصبح فى نفسه غاية تقصـــد لذاتها ومنهم الذين أوجدوا بحق ذلك المبدأ القائل بأن « الفن للفن » فلم يكونوا ليستكثروا مايبذلونه من وقت وجهد طويلين فى سبيل صقل الشعر أو فى البحث عن الأوصاف الجميلة أو فى ابتكار المحسنات البديعية الرائعة أو فى أحكام أوزان الشعر بطريقة لم يسبقوا اليها ، ولقد انتشرت هذه الاتجاهات وتجاوبت أصداؤها وكان لها تلاميذها المخلصون ، لا فى المدينة فحسب ، بل وخارجها فى مراكز الأدب المختلفة فى سوريا ومقدونيا وبرجام وغيرها ولم يكن الشعر وحده هدفا لهذه الثورة بل امتدت الى كل أنواع الفنون الأخرى ٠ كانت هناك ثورة على القديم ونزوع الى الجديد المشبع بروح الصراحة والحرية ٠٠

(أ)



شعر الاسكندرية فى العصر البطلمى



- ١ -

والآن وقد شهدنا بناء المدينة ولمسنا العوامل الاجتماعية التى تركت اثرها بلا شك فى انتاجها الفنى ، فان علينا أن نعبر الزمن لنعيش مع الآثار الفكرية للمدينة الخالدة ، ولندرك مدى مالهذه العوامل المختلفة من أثر فى ايجاد شعر جديد تتمثل فى بعضه النزعة الاسطورية ذات الاثر اليونانى الواضح ، ولعل أقرب الأمثلة التى بين يدى الآن والتى تعبر عن هذا الاتجاه قصيدة « سارق العسل » للشاعر « ثيوكريتوس » من القرن الثالث ق.م .

(ذات يوم تسلل « اوروس » الى خلية نحل ليسرق أقراص العسل فلدغته نحلة فى يده .... وألحقت بأصابعه اصابة بالغة .

فأخذ ينفخ فى يده ويصيح .

ثم أسرع الى أمه الالهة « افروديت » وشكا اليها النحلة قائلا « كيف تستطيع هذه المخلوقة الصغيرة أن تلحق بى اذى كبيرا ؟ فضحكت الالهة وقالت :

« فيم العجب !؟

الا تسبب أنت أيضا جراحا دامية رغم ضالة جسمك » (١)

وفى قصيدة « الصياد » للشاعر « موسوخوس » الذى عاش فى أواخر القرن الثانى ق.م نلمح ظلال العاطفة المتقلبة التى تكاد تكون سمة من سمات الخلق الساحلى ، وفى الأسطر الثلاثة الأخيرة منها نكاد نحس التنهيدة العميقة التى يطلقها السكندريون المعاصرون عندما لايجدون مناصا من الرضوخ للأمر الواقع ، كما نشهد فيها بعامة تأثير البيئة الساحلية وانطباعات مظاهرها :

(عندما يداعب النسيم صفحة البحر الازرق
يغرينى ماؤه الهادىء فانسى جمال البر وبهجته

---

(١) ترجمة الدكتور محمد صقر خفاجة فى كتاب شعر الرعاة .

فاذا ما هاج واضطربت أمواجه .

فسرعان ما أذكر اليابسة وتحلو مناظرها فى عينى .

واشتاق اليها .

ان حياة الصياد لقاسية .

مأواه السفن ... وعمله فى البحر .

وأمله وراء الاسماك الهائمة

- ٢ -

وكما ندد شاعر الاسكندرية الشعبى « بيرم التونسى » فى العصر الحديث بالزواج الملكى أيام « فؤاد الاول » فى قصائد شعبية مشهورة (١) وكان جزاؤه النفى من البلاد فاننا نجد كذلك شبيها فى الاسكندرية القديمة حيث ندد الشاعر السكندرى « سوتاريس » بزواج بطليموس الثانى وكان جزاؤه ان غرق فى البحر حيا .

وتلك سمة أخرى من سمات سكان السواحل ، وهى الجراة فى التعبير الى حد عدم المبالاة بالعواقب ، التى تبدو قسوتها واضحة امام أعينهم وكذلك اتجه كثير من شعراء الاسكندرية فى ذلك العهد الى التغنى بجمال الطبيعة الريفية وهدوئها .

كرد فعل لما تتركه ضجة المدينة الصاخبة من تأثير فى أعصابهم المتوترة ، بل وشارك بعضهم الفلاحين فى التغنى بالمواسم المحلية ومن القصائد التى نظمها ثيوكرانيس واحدة تقوم على الحوار نقتطف منها هذه الفقرة التى تصلح أن تكون نشيدا للحصاد ...

(أى ديمتير :

ياربة الفاكهة والقمح الوفير ،

ساعدينا لنحصد القمح بلا مشقة .... ولا عناء .

---

(١) نذكر هنا مطلع قصيدتين لبيرم التونسي في هذا الموضوع وهما :

(أ) البامية فى البستان تهز القرون   وجنبها القرع الملوكى النضيف

(ب) البنت ماشية من زمان تتمخطر   والغفلة زارع في الديوان قرع أخضر

باركى المحصول واملئى البيادر .

وانتم ياشباب .

اخلصوا فى أعمالكم .. واستيقظوا مع الطير .. فى الصباح المبكر
لا تتوقفوا الا اذا حمى الحر اللافح .

ولا تناموا الظهيرة ، بل ارقبوا ريح الشمال

ياربة الفاكهة والقمح الوفير .

باركى المحصول ... واملئى البيادر ..) (١)

- ٣ -

ومن اشهر شعراء ذلك العصر « كاليماخوس » الذى نظم كثيرا من الشعر العلمى ومع ذلك فقد كان مجاله كبيرا فى الشعر القصصى ومن اشهر قصصه الشعرية « هيكالى وثيبوس » فى ألف بيت وتدور حول سيدة عجوز قضى البطل « ثيبوس » ليلة فى كوخها قبل أن يذهب لمنازلة « ثور مارثون » وعاد اليها بعد أن انتصر ليقدم لها شكره ، ولكن الموت كان اسبق اليها منه ..

وقد سخر هذا الشاعر كثيرا من شعره فى تملق الملوك ومدحهم كقصيدته المسماة « نشيد الى زيوس » وفيها يمجد « فيلاد لفوس » بطليموس الثانى وكقصيدته الجملية « خصلة من شـعر بيرنيكى » التى تدور حول خصلة من شعر زوجة بطليموس الثالث وكانت قد نذرتها لمعبد الاله اذا ما عاد زوجها من سوريا سالما ، ولكن الخصـلة اختفت من مكانها فى المعبد فادعى فلكى القصر انها صعدت الى السماء ، ونظم الشاعر قصيدته الرقيقة مؤكدا ان الخصلة أصبحت بالفعل مجموعة من النجوم الزاهية ...

واذا كان للأحياء نصيب كبير فى مدائحه ، فان الموتى كذلك . لم يعدموا نصيبا من مراثيه ، ونتمثل هنا بمقطوعة من مرثية نظمها فى رثاء صديقه الشاعر « هيراكليتس » :

« ان الدمع ليتفجر من مآقى

---

(١) من ترجمة الدكتور محمد صقر خفاجة في كتاب شعر الرعاة .

كلما تذكرت ان الشمس كثيرا ما كانت تغيب

ونحن لا نزال نتابع حديثنا .

واذا كنت الآن أيها الصديق .

قد غدوت قبضة من رماد .

فان بلا بلك (١) باقية لن تمسها يد الموت .

قابض أرواح الجميع . » (٢)

- ٤ -

ومن الشعراء الجديرين بالذكر فى هذا العصر «أبولونيوس» صاحب ملحمة « بحارة السفينة ارجو » المنظومة فى ٥٨٣٥ بيتا (٣) والتى تمتاز بقوة التحليل النفسى وبراعة تصويره حب « ميديا » « لجاسون » بطل هذه الملحمة التى تدور حول ذهابه لأبيها الطاغية « آيتيس » فى طلب الجزة الذهبية وكان الملك قد جعل من هزيمة ثيرانه المخيفة ثمنا لها . ولقد وقعت ميديا — ابنة الملك — فى شرك حبه ، ودفعها هذا الحب الى أن تعطيه العقار السحرى الذى يمكنه من النصر وفى المقطوعة الثانية نرى كيف أبدع « أبولونيوس » فى تصوير الصراع الهائل الذى دار فى أعماق « ميديا » وهى ترى « جاسون » ذاهبا الى معركته القاسية مع الثيران ..

(كانت العذراء تختلس النظر اليه ....

حيث ألقت خمارها جانبا

ان قلبها ليحترق من الوجد

وروحها مدنفة كالحلم تتبعه أينما ذهب

---

(١) اشارة الى قصائد الشاعر المتوفي .

(٢) ترجمة الدكتور محمد محمود السلامونى فى الحولية الخامسة لآداب عين شمس سنة ١٩٥٩ .

(٣) يقول وول ديوارنت فى كتان قصة الحضارة أن فرجيل فى أنيادته نسج على منوال هذه الملحة فى شكلها وفى مادتها أحيانا وانه حكاها سطرا سطرا (الترجمة العربية الجزء الثالث من المجلد الثانى) .

ثم خرجت وروحها اسيرة الهموم
فلا يزال المنظر ماثلا أمام ناظريها
أى انسان كان ؟!
أى رداء كان يرتدى !؟ أى حديث خاضه ؟!
كيف كان يجلس على مقعده ؟!
وكيف اتجه نحو الباب !!؟
وكلما تستأثر بها الذكرى .... تخال أن رجلا مثله لم تجد به الدنيا ان صوته وكلماته المعسولة لترن فى اذنيها
لقد ملأ الرعب قلبها مخافة ان تصرعه الثيران
وفى غمرة شجنها ..
تجرى دمعة كبيرة على خدها ... اشفاقا عليه
وبينما هى تبكى ، اذا بها بصوت عال ... تقول
« لم يغلبنى الالم ؟ انا الشقية ...
ماذا يعنينى ان كان ابرز الأبطال أو احطهم سيلقى حتفه ؟
الى حيث القت ..
ومع ذلك فكم اتمنى أن ينجو .. ولا يضار
ليت هذا يحدث
ايتها الربة المقدسة .. هيكاتى ابنة بيرسيس
ليته يهرب من الموت ...
ويعود الى وطنه ...) (١) .

- ٥ -

ـ ولقد أقبل الشعراء السكندريون على (الا بجراما) اقبالا عظيما وبلغوا فيها حد الكمال ، ودخلوا بها قصور العظماء ، وبيوت الفقراء ، ورفهوا بها عن العلماء المكدودين ، كما كانت كأسا تدار مع أقدام الراح على المحتسين ، وهجاء لاذعا لا يسلم منه حتى الارباب .

(١) تفضل باختيارها وترجمتها الدكتور محمد محمود السلامونى الاستاذ بجامعة عين شمس

و « الابجراما » مقطوعات قصيرة أهم خصائصها التركيز والوضوح واصابة الفرض وكانت تكتب أولا على شواهد القبور ، ثم اتسعت بعد ذلك لكل الأغراض وقد استطاع « ميليا جروس (١) » أن ينفذ الى أعماقنا وهو يرسل هذه الابيات فى بساطة متناهية راثيا الطفل « ايسيجنيس » فى احدى ابجراماته ..

(سلاما ايتها الارض .... ياأم الجميع

لم يكن أيسيجنيس حملا ثقيلا عليك

ليتك تضمين الآن رفاته

غير ثقيلة عليه ... (٢)

ولكن « ليونيداس » استطاع ان يضحكنا فى احدى ابجراماته على السيدة « مارونيس » التى رثاها فى سخرية بقوله ....

(ترقد هنا « مارونيس العجوز .... المحبة للنبيذ ، والمدمنة للشراب .. انها تنوح تحت الثرى

لا على أولادها .. ولا على زوجها ..

على أن القدح اصبح فارغا) .

والابجرامات التالية واحدة من ابجرامات الشراب وهى للشاعر « هيدليس » احد شعراء الاسكندرية الاوائل :

(فلنحتس الراح ... فسأجد وأيم الحق .. أجل وأيم الحق فى رحاب بنت العنب ... جديدا ... مثيرا ... حلوا تجود به قريحتى

أغرقنى اذن فى قوارير النبيذ الخيوى وقل ...

انظم أشعارك المرحة يا «هيدليس» .

انى اكره أن اقضى حياتى عبثا

أعنى .. غير ثمل ..) (٣) .

---

(١) ميليا جروس شاعر سورى من مدرسة الاسكندرية .

(٢) من ترجمة الدكتور محمد محمود السلامونى فى الحولية الخامسة لآداب عين شمس ١٩٥٩

(٣) ترجمة الدكتور محمد محمود السلامونى واختياره .

على أن هناك ظاهرة غريبة جديرة بالتسجيل وهى انى لم أقع فيما وقفت عليه من مراجع ، على شاعر واحد فى ذلك العصر من اصل مصرى خالص ، انما كانوا جميعـا ، اما من الاجـانب الوافدين الى الاسكندرية أو من السكندريين الذين ينتمون الى سلالات أجنبية وانهم جميعا كانوا لا يكتبون بغير اليونانية ...

وربما رجع هذا الى أن الأمية كانت تسود الغالبية العظمى من الوطنيين أو ربما كان الشعراء المصريون ينظمون بلغتهم الشعبية التى لم تكن العناية بها ــ فيما يبدو ــ كافية لحفظ اشعارها ، اذ كان تدوين الآداب من مهمة الخاصة الذين ينتمون بالصلة أو التودد الى الهيئات الحاكمة ذات اللسان الغريب والعواطف المغايرة ، هذا الى بوادر اضمحلال اللغة المصرية نفسها فى هذه الفترة تحت تأثير الضغط الثقافى الاغريقى والقوى الادبية والمادية المساندة له ، والتجاء كثير من الناس الى من يكتبون بالاغريقية فى أعمالهم التجارية وفى مراسلاتهم حتى الشخصى منها ، على أن هذا لا يمنع ان يكون هناك شعر شعبى قد دون على بعض آثار هذه الآونة ولم يصل اليه المعنيون بهذا الأمر بعد ، كما يمكن القول باحتمال وجود شعراء مصريين نظموا شعرهم باللغة اليونانية نفسها ولكنه لم ينل حظه من القوة أو من السبيل الى الظهور .



(ب)

شعر الاسكندرية تحت مطرقتى روما وبيزنطة



- ١ -

اسدل الستار على الفصل الأخير من مسرحية البطالة فوق وادي النيل وآثرت « كليوبترا » آخر ملكة على عرش الاسكندرية أن تموت بيديها لا بأيدى الرومان وبعد حياة مرت حالمة كنسمات الصيف ، عاصفة كأعاصير الشتاء وانطلق الشعراء الرومانيون ينشدون أغنيات جارحة ، تنتفض بها الأهوال وينكفىء منها ضمير الانسانية ليملى على الزمن تلك الكلمة الحقة « ويل للمغلوب » ولعل اعف ما نظمه هؤلاء الشعراء قصيدة « هورانيوس » التى يتحدث فيها عن مصرع ملكة مصر فنستشف من حديثه مدى الخطورة التى كانت تحس بها روما ازاء « كليوبترا » سيدة وادى النيل ، ذلك حيث يقول :

(لقد كانت ملكة هوجاء ..

تدبر الخراب للكابيتول ، والدمار للامبراطورية .

غير انها وقد سعت الى أن تموت ميتة نبيلة .

لم تهلع من نصل السيف مثل ما تهلع النساء .

ولم تسع باسطولها السريع الى شطآن خفية .

بل انها اجترأت على أن ترمق قصرها المتهاوى .

بعين .... ملؤها الهدوء .

وانها لمقدامة أيضا ..

اذ امسكت بالافاعى الشرسة .

لكى يمتص جسمها السم الزعاف .

وقد زادها الاصرار على الموت جراءة .

فاستنكفت أن تحمل ، وهى متجردة من أبهة الملك .

على سفن القساة .

أو أن تساق فى ركب النصر الظافر .

انها أمرأة ذات أباء) (١)

وكذلك قدر للمدينة أن تشهد مصرع القائد العاشق «انطونيوس» بعد اندحاره أمام مواطنه العنيد « أوكتـافيوس » وان تئن تحت أقدام الغزاة من الرومانيين ، أولئك الذين طربوا للنصر فانطلقت حناجرهم تغريدا بالفرحة الغامرة ، بعد أن كتبت لهم الافعى سلامة الامبراطورية من عدوتها اللدود :

(الآن ينبغى أن نشرب

وتدق الأرض بأقدام طليقة ·

ونعد أرائك الالهة ... لأفخر المآدب ..) (٢)

- ٢ -

والرومانيون كما يقول أحد النقاد « قوم غزوا الدنيا وأعينهم فى الأرض فى حين كان اليونانيون يغزونها واعينهم فى السماء يعلل بذلك أن الرومانيين لم يهتموا كثيرا فى مستعمراتهم باحيـــاء الفنون والآداب اذ كانت جهودهم تكاد تكون مقصورة على ضفاف « التيبر » وما يحيط به حيث ألقى الخلود بسمعه الى طائفة من الشعراء العباقرة عاشوا حينا من الدهر نجوما فى سماء الأدب اللاتينى ...

ونحن هنا لن نبحث فى الحياة العلمية والفكرية الا فى نطاق الشعر فلن نتعرض للفلاسفة والعلماء اللاهوتيين من الذين ازدان بهم تاريخ الفكر السكندرى ، وحق للاسكندرية أن تفاخر بنبوغهم حواضر العالم فى هذه الفترة من الزمن ، بل سنقصر جهدنا فى تثبيت أقدامنا على هذا الطريق الذى اخترناه ، وحددنا اتجاهنا فيه ، فاذا ما تلمسنا مواقع خطواتنا على هذا الدرب الغامض ، أصبح من الهين علينا أن نتبين معالم الطريق ، والحق اننا بعـد ان أمضينا فترة مضنية فى البحث لم نجد بالاسكندرية شعراء فى ذلك العهد لهم من المكانة كالتى كانت لأسلافهم فى العهد البطلمى ...

---

(١) ترجمة الدكتور عبد اللطيف احمد في كتابه « مصر والامبراطورية الرومانية »
(٢) المرجع السابق ونفس الشاعر .

وانما نجد فى الغالب شعراء عاشوا ظلالا باهته لصراع دامى الرؤى فى مجتمع قاتم ، كما نجد أن بعض أشعارهم مشت تساير الدين ، تمهد له ، وتنظم بعض صوره فى غير ما شاعرية مجنحة يمكن أن تحلق بنا بعيدا عن تراب المدينة (١) .

فاذا استمعنا الى القليل من الاغنيات التى تمثل الاتجاهات الأخرى من النوازع الانسانية وجدناها وقد وضعت فى اطار باهت لا يتفق مع ماللاسكندرية من مجد شعرى متألق وربما اعترضتنا أسماء شعراء لهم صلة حقيقية بالشعر ولكن هؤلاء يعتبرون فى الواقع امتدادا للعصر البطلمى ، ولهذا فاننا لا نكاد نسمع عن اسم شاعر جديد شق طريقه الى الخلود بعد المائة الاولى من الفتح الرومانى :

هذا الى جانب مجموعة أخرى كتبت باللغة الوطنية التى بدأت تتحرك فى ذلك العهد لتعلن عن نفسها ولكنها سرعان ما توارت وراء الجدران فلم يقدر لها أن ترى الشمس ...

الحق اننا نخرج من هذا كله وبعد أن يضنينا الجهد بحقيقة مرة مؤداها أن معظم منظومات الاسكندرية فى ذلك العهد ، قد استحالت الى هياكل جافة لا روح فيها ، فاذا ترددت نسمات حياة فى قليل منها ، فذلك لان الله قادر على أن يحى الموتى ...

- ٣ -

كانت الاسكندرية يومئذ خليطا من المصريين واليونانيين واليهود بجانب قلة من الطوائف الأخرى ، فعمل الرومان على اثارة أسباب الشقاق والفرقة بين هذه الجماعات ، وكان ان عاش سكان المدينة فى صراع دائم تلونه الدماء فى كثير من الاحيان ، وعلى ذلك ضمنت روما سيطرتها عليهم اذ لا توجد هناك قوات متجانسة يمكن أن تؤلف خطرا حقيقيا يستطيع أن يناوئها ، فالوظائف العامة — فيما عدا القيادية منها — أصبحت وكأنها حق مكتسب لليونانيين ، وهؤلاء لا يمكن اتحادهم مع الوطنيين الذين ظلوا ينظرون اليهم بعين الكراهية الموروثة والحقد الدفين ، ذلك لأن الوطنيين

---

(١) لجا «أرتوس» الى استخدام النظم كوسيلة من وسائل عرض فكرته اللاهوتية ، كما نظم «ديدموس» الضرير بعض أوشيات الانجيل فاستمدت منظوماته القداسة من موضوعها وأنا لا أعنيها فى هذه الفقرة .

كانوا يعتبرون الأغارقة دخلاء ، ظفروا بكل شيء ، وحرموهم من كل شيء ثم هم يرونهم بعد أن انتهى حكم البطالمة ــ الاسرة التى كانت ترعاهم ــ قد ازدادوا فأصبحوا عين المستعمر الجديد التى يرى بها وسمعه الذى يسمع به ...

هذا ولم يسمح الرومان بطبيعة الحال بقيام جيش وطنى قوى مشكوك سلفا فى ولائه لهم ...

ولقد سهلت هذه العوامل من مأمورية الجيش الرومانى الذى كان يرابط فى « نيكوبوليس » على بعد بضعة أميال شرقى المدينة . ومن ثم استكان الناس فلم يثوروا على الظلم الا فى فترات متقطعة لم تقو على أن تجتث جذوره ، واستحالت مصر كلها الى مخازن غلال للامبراطورية .

والحق ان الرومان لم يفرضوا لغتهم على الناس بل تركوا لكل من اراد الحرية فى أن يكتب باللغة التى يرغب التعبير بها . فلم تكن اللغة اللاتينية لغة رسمية للادارة المحلية وانما كانت قاصرة على الجيش ولقد نتج عن ذلك عدم رعاية الدولة لهذه اللغات جميعا مما أدى الى هوان قيمة الأعمال الأدبية المكتوبة بها ، وقد اتجه الشعراء بعد ان افتقدوا المؤثرات التى يمكن أن تؤثر فى كيانهم الأدبى الى نظم العلوم والمعارف فى منظومات ليسهل على الناشئة حفظها وتلك ظاهرة نلمحها دائما فى عصور الانحطاط الأدبى ، عرفناها فى العصر المملوكى وعرفتها البلاد العربية فى ظل العثمانيين حينما طالعتنا هذه العهود بمتون منظومة للنحو والمنطق والقراءات والفلك والعلوم الأخرى ...

على أن الاسكندرية فقدت بعد ذلك البقية الباقية من حريتها حتى احصيت على الناس حركاتهم وأغلقت معاهد العلم فى فترات متلاحقة وسيق الشبان فى كثير من الحالات الى القتل الجماعى كذلك الذى حدث يوم ان حلت بها نقمة « كراكلا » الامبراطور الموتور (٢١١ ــ ٢١٧ م) .

(٤)

ولقد وجدت المسيحية فى ذلك العهد منفذا الى قلوب الناس ، بعد أن مهدت المحن لها الطريق ، وأصبح الناس فى حاجة الى العزاء ، ينشدونه فى ملكوت السموات ، بعد أن فقدت الأرض من قدرتها على أن تمنحهم اياه وربما ساعد على انتشارها بينهم ، ما تشابه منها مع

ديانة آبائهم من مثل الثواب والعقاب فى الحياة الآخرة . وخلود الروح ، ولما هناك من تشابه أيضا بين « حورس » الطفل و « ايزيس » الأم وبين « المسيح » و « مريم » عليهما السلام ، بل وبعد أن أصبح الاغريقى المنتصر « سيرابيس » ظلا ثقيلا لا تسنده القوة التى فرضته من قبل ...

واحست الوثنية بهذا الخطر الزاحف يتهدد كيانها ، فيما تلمحه من وفاء أصحاب هذا الدين الجديد لدينهم فنظم مؤلف كتاب « هرمس الأكبر » فيما ترويه السيدة ل . بوتشر (١) مرثية يتحدث فيها عن الوافدين من الشمال ويتنبأ فى حسرة بانتصار هذا الدين الغريب ولعله كان يبغى اثارة روح الحفاظ فى الشعب ليناضل عن دينه القديم .

(فواحسرتاه عليك يامصر

اذ سوف لا يبقى فيك سوى ظل ديانتك فلا يؤمن بها الاعقاب وسوف لا يدل عليك سوى تلك النقوش المحفورة على أعمدة مبانيك الشاهقة التى تشيد بأعمالك الباهرة .

ان قومك سيأتونك

من الحيثيين ، أو من أية قبيلة متوحشة اخرى .

وسوف يغادرك الله الى السماء .

وسيهجر الله والانسان أرض مصر) (٢) .

ويعود الشاعر فيتكهن بالمعارك التى ستدور بين أصحاب الدين القديم وهؤلاء الجدد فيقول ...

(اسمع ما أقوله لك أيها النهر المقدس .
ستمتلىء مياهك وينابيعك المقدسة بالدماء
سيصير عدد الأموات الذين ستبتلعهم أكثر من عدد الأحياء
والذى سيبقى حيا لن يعرف أنه مصرى الا بلغته فقط .
وأما أعماله .. فستكون كأعمال المتوحشين (٣ ، ٤) .

---

(١) ص ٦٠ جـ أ تاريخ الامة القبطية (مكتبة بلدية الاسكندرية رقم ٤٥٢١ د) .
(٢) المصدر السابق .
(٣ ، ٤) ربما راع الشاعر تقشف الدعاة الأولين للمسيحية واهمالهم مظاهر الزينة والنظافة التى عنى بها المصريون من قبل ....

ولكن الناس كانوا قد انطلقوا يؤمنون بالدين الجديد ، وكان على الوثنية أن تمسك بتلابيب الجموع التى بدأ ينتزعها هذا الدين ، فاتجهت مدرسة الاسكندرية وعلى راسها « افلوطين » الى القول « بأن الالهام هو الذى يكشف حقائق الاشياء وليس المنطق ، وان هناك أشياء أسمى من الفكر فى ادراك الحقيقة هى البصيرة ، أو هو الكشف ، وانه يمكن الاتحاد مع الله ، والاندماج فى ذاته بواسطة التقشف والزهد » وهو اتجاه يقرب الى حد ما مع الاتجاه المسيحى .

ولعل الصمود الذى اتصف به المسيحيون فى مواجهة العاطفة ، هو الذى حدا بخصومهم الى الاستعانة بنفس المؤثرات الروحية التى يستعينون بها ، فانه لامكان للمنطق المجرد أمام الايمان ، كما أنه لامكان للمنطق أمام القوة ، غير أن هذا الصراع العنيف دار مع الزمن وانتهى به المطاف الى مأساة ذلك اليوم .. أن اطلت رءوس المؤمنين من أقبيتها لتعلن فى اصرار عن ايمانها فاصطدمت بالطغاة وعلى قمتهم « دقلديانوس » ٢٨٤ م .

ان أقسى أنواع العذاب ما أعجزك أن تصرخ ، حسبك عندئذ أن تئن ، أما أن تنظم الانين شعرا ، فان ذلك يكون ترفا لم تنعم الاسكندرية به فى عصر الشهداء ، وهى فترة من الزمن ، سميت بهذا الاسم لكثرة ما أهرق فيها من دم زكى طهور .

(٥)

ثم دار الزمن دورة أخرى ، ووجدت المسيحية المضطهدة طريقها الى الاستعلاء والظهور ، وما ان بدأ القرن الخامس حتى كانت الكنيسة القبطية لها مكانتها ثراء ونفوذا ، فكانت لها السفن التجارية التى تعمل لحسابها ، والضياع ذات الغلال الوفيرة ، وأصبح من حق أساقفة الاقاليم الحكم فى جميع القضايا التى يكون المدعى علبه فيها أحد رجال الكنيسة بل كان للأساقفة أيضا حق الاشراف على الادارة الحكومية فى أبرشياتهم ، فضلا عن ضرورة الحصول على موافقتهم عند تعيين الموظفين .

ومع ذلك فان المدينة المرتجفة لم تجد ظلا من سلام ، ولم يكن بها عاصم من تسامح نبيل ، ولقد التقت الاسكندرية يومئذ وجها لوجه بالحقيقة المرة التى تقول (ان الذى يقول آمن بما آمنت به والا دخلت

النار ، لا يلبث اذا ما أوتى القوة ، أن يقول لك آمن بما آمنت به والا قطعت عنقك) .

وكان ذلك اليوم أن دمر المسيحيون معبد « السرابيوم » ٤١٢ م وثارت المعارك فى شوارع المدينة بين المسيحيين والوثنيين ، وتبدو مأساة الفيلسوفة الرياضية البارعة الجمال « هباتيا » فى قمة الأدلة على مجافاة روح هذا العصر للمسيحية السمحة ذلك عندما قتل المتعصبون من المسيحيين « هباتيا » ٤١٥م وهى تدافع عن عقيدتها ومثلوا بجثتها أبشع تمثيل ، فى طرقات الاسكندرية المزدحمة بالاعين المتطفلة لرؤية الجمال الذبيح ..

- ٦ -

كان ذلك والوثنية فى الرمق الأخير ، ومع ذلك فان المدينة لم تستقر حتى بعد ان لفظت الوثنية آخر انفاسها ، بل ابتلى المؤمنون بمذهب دينى جديد آمن به البيزنطيون وأقروه رسميا فى مجمع « خلقدونية » ٤٥١ م ولا يهمنا وجوه الخلاف بين المذهبين ولا أيهما كان الحق معه ، وانما الذى يهمنا هو أن المستعمرين حاولوا فرض مذهبهم بالقوة وأن الهوة ازدادت اتساعا وان النار اشتد أوارها بما ألقى فيها من وقود ..

ولقد فرت جماعات من المسيحيين بدينها الى الصحراء حيث حياة تسودها الاشتراكية والشعور المطمئن نسبيا ، وحيث احتفظت المسيحية المصرية فى هذه الأديرة بالكثير من تراثها الأخلاقى والدينى والعلمى بل وازدهر بداخلها الكثير من ألوان هذا التراث أما المدينة فيكفينا أن ننقل هذه الاسطر التاريخية التى اوردها « بطلر » والتى تصف كيف مات « ميناس » وهى قاعدة يمكن تطبيقها على آلاف شهداء ذلك العصر مع اختلاف فى التفاصيل ...

« وكان تعذيبه بأن أوقدت المشاعل نيرانها على جسمه حتى سال الدهن من جنبه على الأرض ، واستمر الرجل صامدا ، فخلعت أسنانه ثم وضع فى كيس أثقل بالرمل ثم ذهبوا به الى البحر حتى اذا اقتربوا منه عرضوا عليه الحياة اذا هو آمن بما أقره مجمع خلقدونية ...

فعلوا ذلك ثلاثا وهو يرفض فى كل مرة ... فرموا به فى البحر فمات غرقا » (١) .

هكذا كانت حياة المؤمنين فى الاسكندرية تحت مطارق الحكم البيزنطى فكيف يمكن أن يزدهر الشعر فى ذلك الجو الخانق القاتل ؟

وكيف يمكن للشعراء ان يعزفوا على قياثيرهم أغنيات الحب والجمال، فى حين صراخ الانسانية ينصب فى أسماعهم ويأخذ عليهم كل سبيل ..

لقد كان الليل ثقيلا الى الحد الذى لا يستطيع فيه الانسان أن يتنهد وما ان رأى سكان وادى النيل جيش عمرو بن العاص ٦٤١م حتى استقبلوه بترحاب كبير وأشرق على المدينة صباح عهد جديد .

---

(١) فتح العرب لمصر تأليف بطلر وترجمة الاستاذ ابوحديد .

(ج)

شعر الاسكندرية من الفتح العربى
الى بداية العهد الفاطمى



- ١ -

نفض السكندريون عن أعناقهم نير الولاء للامبراطورية المنهارة ٠ وانتهت مقاومة الحامية البيزنطية بعهد قطعه المسلمون على انفسهم لعل ألمع ما فيه من نقاط ما تمثله هذه الأسطر المشرقة ٠

« هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وبرهم وبحرهم ... لا يدخل عليهم شيء ، وعليهم ما جنى لصوصهم ، وان نقص نهرهم عن غايته ، رفع عنهم بقدر ذلك ، ومن دخل في صلحهم من الروم فله مثل مالهم ، ومن أبى منهم ، واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه » ٠ وبهذا ورث العرب مصر وبالتالى الاسكندرية بكل ما فيها من مجد تليد ، وآثار باقية ، وطرق منورة ، ومساكن طيبة ، الأمر الذى أغرى عمرو بن العاص أن يسكنها ، فكتب فى ذلك الى عمر بن الخطاب يستأذنه ، وكان عمرو قد وصف البحر للخليفة من قبل بقوله « انى رأيت خلقا كبيرا .. ان سكن فرق القلوب .. وان تحرك ازاغ العقول .. يزداد فيه اليقين قلة .. والشك كثرة » . ولعل هذا هو السبب فى أن عمر بن الخطاب أبى على عمرو بن العاص أن يحقق رغبته بأن يتخذ منها سكنا وكتب اليه « انى لا أحب أن تنزل المسلمين منزلا يحول الماء فيه بينى وبينهم فى شتاء ولا صيف » .. فتحول عمرو الى الفسطاط ، وبالتالى بدأت الاسكندرية تتنحى عن مكانتها الموروثة للعاصمة الجديدة ٠

والواقع أن عمر بن الخطاب كان بعيد النظر فى عدوله عن اتخاذ الاسكندرية ذات الطابع الساحلى فى عاداتها وميولها ، والمغرقة فى مسيحيتها عاصمة لمصر الاسلامية .. ولم يكن من مصلحة العرب ، اتخاذ عاصمة بحرية لملكهم الجديد ، وهم الذين لم يتمرسوا البحر ، ولم يعقد بينه وبينهم رباط من مودة والفة ، هذا الى تطرق موقعها فى دلتا النيل وبعدها عن بقية بلاد القطر بحيث لا تصلح — من وجهة النظر العربية — ان تكون نقطة ارتكاز تدار منها الدولة .. ولم تكن الاسكندرية بعد هذا سلاما خالصا ، بل تلقت من الروم بعض الهجمات التى استطاع العرب ردها ، ومن ثم عنوا بتحصينها واقامة دار للصناعات البحرية

فيها ، مالبثت أن اخرجت هذا الاسطول الذى رد الروم فى معركة ذات الصوارى . وهى أول معركة بحرية كبرى انتصر فيها العرب على الروم .

- ٢ -

ولقد شغل الحكام العرب بعد مضى وقت قصير من الفتح بالقضاء على بعض الثورات المحلية التى نشبت بين سكان البلاد من جهة ، وبين قوات الحكومة من جهة أخرى ، وقد استمرت هذه الثورات فيما بعد بشكل منقطع بل واشترك فى بعضها السكان من العرب أنفسهم ، وبخاصة بعد أن أصبحوا ملاكا ، وبعد أن رفعت أسماء مستثمرى الأرض منهم من عداد الجنود ، واضطرت الدولة الى فرض الخراج على الجميع

كذلك شغلتهم الخلافات الحزبية التى قامت بين العلويين والأمويين وبين الامويين والعباسيين انفسهم على التوالى ، اذ كان للقبائل العربية هواها مع أطراف هذه الخلافات .

ولا شك ان شعرا باللغة الشعبية قد قيل فى ذلك العهد ، سواء أكان منظوما باندفاعات عاطفية فردية أو تعبيرا عن شعور جماعى ، ولكنى لم استطع الوقوف عليه ... ربما لجهلى بهذه اللغة ، أو لأن أصحابها لم يعنوا بترجمة هذه الاشعار ونشرها أو لعوامل أخرى طبيعية أفسدت أوراق البردى المخطوطة عليها هذه الآثار .

غير أن القليل الذى وصلّ الينا يدل دلالة واضحة على أن ثمة نهضة أدبية قامت بين الأقباط فى منتصف القرن السابع الميلادى واستمرت حتى نهاية القرن الثامن ثم لم تستطع هذه النهضة ان تساير التيار الثقافى العربى الذى بدأ ينشر ظله على البلاد ولا أن تصمد أمامه ..

ولعل من أسباب هذه الصحوة الشعور النسبى بالحرية فى ظل الحكام الجدد يضاف الى هذا انتشار صناعة الورق ووفرته ثم تخفيف الواجبات الدينية والعملية على الرهبان والسماح لهم بالقرارات الدنيوية، ولعل أجمل أثر أدبى من آثار هذه الفترة استطعت الوقوف عليه هو ما تمثله قصيدة « ارخليدس وسنكلتيكى » وهى قصيدة شعرية فى حوار ، ويمكن ايجاز ما تبقى منها فى هذه المشاهد التى سننقلها هنا

والتى نمهد لها بموجز للقصة التى تدور القصيدة حولها وهى مستمدة فى أصولها من قصة شعبية سابقة .

- ٣ -

كان « أرخيلدس » ابنا وحيدا لامه « سنكلتيكى » التى أرسلته بعد وفاة أبيه فى رحلة بحرية يرفه بها عن نفسه ولكن السفينة التى أبحر عليها غرقت ولم ينج من ركابها سواه ‥ وألقت الأمواج «بأخليدس» فوق الشاطىء حيث وجد احدى الجثث التى طرحها البحر ، وأثر فيه مشهد الموت ، فقرر أن يترهب فى دير للراهب « أنبا رومانوس » حيث عاهد المسيح الا يرى وجه امرأة قط ، ووصلت أنباء السفينة التى غرقت الى الأم التى أيقنت انها فقدت وليدها الى الأبد ، وحاولت الأم الخروج من دوامة الحزن فأقامت فندقا للغرباء ‥

واشتهر القديس « ارخليدس » بالتقوى والصلاح ، ولقد تحدث بعض الرواد فى ردهة الفندق الذى أقامته أمه عن القديس الجديد ، وكيف انه أوتى القدرة الالهية على شفاء المرضى ، وبلغ حديثهم مسامع الأم التى تلمست فى أحاديثهم أنساما من مستقر ابنها الحبيب ، وقررت الأم أن تزور وليدها ، حتى بعد أن عرفت العهد الذى قطعه على نفسه ، الا يرى وجه امرأة قط ، فما دار بخلدها ان يطبق الابن هذا العهد على امه ، وأن يعتبرها كسائر النساء ‥

ووصلت الى الدير ويعلم « ارخليدس » بوجودها ، فيدعو الله أن يتوفاه بالموت حتى تستطيع أمه أن تراه ولا يحنث هو بعهده ‥

ويموت « أرخليدس » ويسمح رئيس الدير لوالدته أن تراه واذ يفجعها موت وحيدها فانها تدعو الله أن يلحقها به ، ويستجيب الله لدعائها ... فتموت وتدفن معه .

- ٤ -

هذه هى القصة التى نسجت القصيدة من خيوطها ، ولم أستطع معرفة شاعرها فان الذين نقلوها الينا ، لم يعنهم اسم الشاعر الذى نظمها، والحق أننا حين ننسبها الى الاسكندرية لانستطيع أن نقول ، اننا نلتزم الدقة التامة التى تلزم المؤرخ ، فلا تزال تنقصنا الادلة التى تقطع

بسكندريتها أما الاعتبارات التى دفعتنا الى ترجيح هذه النسبة فاهمها أن الاسكندرية هى أكبر البلاد التى تتركز فيها ينابيع ثقافة ذلك العهد ، كما ان بالقصيدة بعض معالم البيئة المحلية وانطباعاتها من مثل اقامة فنادق للغرباء والسفينة التى تحطمت بركابها والبحر الذى اجتازته الأم فى سبيل الوصول الى ابنها ، وهى أدلة لاتفى تماما بحاجة الباحث عن الحقيقة ، ولقد ترددت كثيرا فى الاستشهاد بهذه القصيدة لولا اننى أشعر انه من الواجب أن يقوم كل من يتصدى لتاريخ حياتنا الأدبيـة بمحاولة ما فى سبيل ملء هذا الفراغ الذى يبدو واضحا فى تاريخ هذه الفترة من الزمن لا بالنسبة الى الاسكندرية وانما بالنسبة الى وادى النيل بأسره ، وهى فترة توافرت قوى مختلفة على نسيانها ، وأود قبل أن أبدأ فى عرض هذه القصيدة أن انقل كلمة للأستاذ الدكتور مراد كامل، يلقى فيها الضوء على بعض خصائص الشعر القبطى ، وكيفية بنائه وطريقة القائه ، حتى يمكننا الالمام البسيط بالصورة التى كان عليها فن الكلمة المنظومة أيامئذ ، ذلك حيث يقول (ان الاشعار القبطية فى هذا العصر كانت تصـاغ فى أسـلوب وطنى بحت فلم تنتهج نهج الاشـعار الاغريقية ، كما ان الأبياتلم تكن مقفاه ولا موزونة الا فى المقاطع الرئيسية وكانت الكلمات الاغريقية الدخيلة قليلة ، كما كان يبدو فى هذا الشعر تأثير البيئة المحلية ، وكان الشعر لا يقرأ عادة وانما يلحن كما جرت العادة فى الشرق وكانت الالحان التى يلقى بها الشاعريشار اليها بلحن مشهور كما هو متبع فى الترانيم فيقال مثلا ان هذه القصيدة موضوعة على نسق لحن اغنية كذا ...) (١) وبعد فان قصيدة « ارخليدس وسنكلتيكى » التى نحن بصددها لم تصل الينا كاملة كما قدمنا وانما وصلت الينا فى اجزاء متفرقة قام بتنسيقها والربط بينها وترجمتها بعض الأساتذة من المهتمين بدراسة الأدب القبطى (٢) وقد قمنا بايجاز هـذا العمل الجميل ، الذى تبدو فيه العاطفة الدينية واضحة ، كما يبدو فيه الصراع بين عاطفية الامومة والشعور الدينى العميق جليا ومؤثرا هذا الى بساطة محببة فى التعبير والعرض ...

---

(١) صور من تاريخ القبط للأستاذ الدكتور مراد كامل .

(٢) موجز تاريخ القبط تأليف وليم ورل (الترجمة العربية)

ـ أ ـ

« تصل الأنباء الى « سنكلتيكى » بغرق السفينة التى تقل ابنهـا فتندبه وهى بين الشك واليقين فى موته » :

(أرخليدس .. يامن أحبه
ويامن لاسمه عذوبة فى فمى
وليس لى من أحبه سواه

يا اخوتى .. وياكافة معارفى

لتحزنوا ... ولتندبوا معى .. لوفاة ابنى الحبيب

الذى لاأعرف .. ماذا أصابه)

ـ ب ـ

« ويتناقل رواد الفنـدق ، الحديث عن هذا القديس الجديد ومعجزاته أثناء حديثهم عن وفاة صديق لهم » :

(آه لو تمكن من الذهاب الى دير « انبا رومانوس »

حيث القديس ... ارخليدس

ثم توسل اليه ليصلى الى الله من اجله

ليتم له الشفاء

لأن رب السماء ... معه)

ـ جـ ـ

« وتتنسم سنكلتيكى عرف ابنها خلال هذا الحديث فتتوجه الى الرهبان بهذا الرجاء » :

(التمس منكم يا آبائى القديسين ، أن تخبرونى عن مكان هـذا الرجل حتى أذهب وأتوسل اليه عسى أن يشملنى برحمته .

اذ أنى مصابة بمرض دفين
لا أعرف له كنها منذ أمد طويل .

فاذا ذهبت وتوسلت اليه ...

فقد استرد صحتى ...)

ـ د ـ

« ولكن الرهبان يعرفون المهد الذى قطعه ارخليدس على نفسه فيجيبونها » :

(يا امرأة .....

اننا نضع عبئا على اكتافه .

وانت .. لا تستطيعين الذهاب الى حيث يقيم

ففى الطريق وحوش كثيرة

وفوق ذلك .. فان القديس ارخليدس

لا يقع نظره على وجه امرأة .. قط)

ـ هـ ـ

« وتصل الأم الى الدير وتبعث برسولها اليه مزودا بهذه المقطوعة » :

(اذهب وقل لأرخليدس ان والدتك بالباب تنتظر

لقد جئت اليك .. لأرى وجهك

حتى اذا مارأيتك ... فانى أموت .

تعال الى ياحبيبى .. لتطيب بذلك نفسى) .

ـ و ـ

فيبعث اليها أرخليدس برسالة يقول فيها :

(لقد عاهدت ربى .. ولا أستطيع ان احنث بعهدى

الا أتعدى حدود هذا الباب

وألا يقع نظرى ماحييت على وجه امرأة

فاذا مكثت هنا فاجعلى الدير ديرك

واذا رجعت الى منزلك ... ياوالدتى
فليتولك الرب ... بهدايته) .

— ز —

« فردت عليه سنكلتيكى برجائها الحار » .
(ياأرخليدس ... ياابنى الحبيب .
ان صخب البحار التى أتيت عبرها .
لم يسبب لى من الألم ... ما سببته لى كلمتك .
« لن يقع نظرى ماحييت على وجه امرأة ... !! »
يا ابنى الحبيب ..
ان الثديين اللذين أرضعاك ... ينتظرانك بالباب
فى شوق الى رؤياك) .

— ح —

« وتتكرر الرسائل بينهما ثم ينتهى الموقف بأن يستجيب الله رجاء الابن بموته .. ويسمح رئيس الدين للام بالدخـول حيث تنكفىء على جثة وليدها وترثيه بمقطوعات رائعة نقتطف منها » :

ياكافة من انجبن أبناء تجمعن وابكين معى ..
لقد انجبت ولدا واحدا ، وأنا الذى أوردته حتفه ..
تتوق نفسى للتزود منك بنظرة أخرى ..
هى اثمن عندى من جميع كنوز العالم ..
فليعنى الرب ، وعليه القى همومى ..
أيتها النســاء ..
ياكافة من انجبن ابناء ..
تجمعن وابكين معى .. (١)

ولكم وددت لو أتيح لى الاطلاع على نماذج أكثر حتى يمكن الخروج بمحصــــول أوفى نتمكن به من مشاركة الآباء الاولين أحاسيسهم التى تمثلها الكلمة المنظومة غير انه لأسباب عديدة رأيت أن أكتفى بهذا الجهد المتواضع الذى قدمته على هذه الصفحات القلائل تاركا لمن هو أجـدر منى مهمة السير فى هذا الطريق .

(١) الترجمة لجماعة من الاساتذة باشراف الدكتور مراد كامل موجز تاريخ القبط تاليف وليم ورل .

واعود الى الشعر العربى فى هذه الفترة فأقول انى لم أستطع الوقوف على شعر سكندرى نظم باللغة العربية فى هذه الفترة التى امتدت الى أربعة قرون ولعل هذا يرجع اولا الى قلة المراجع ثم الى عدم سهولة البحث فى المراجع الموجودة سهولة تيسر للباحث أن يعرف متى وأين نظم الشاعر شعره كما انه يمكننا القول بأن هذه الفترة كانت مجال انسلاخ من اللغة الموروثة واندماج فى اللغة الوافدة ، وأن المواطنين كانوا فى مرحلة محاولة التعبير بالعربية عن حاجاتهم اليومية ، ولم تكن السنتهم قد لانت للأساليب الأدبية ذات الطابع البيانى الخاص ، هذا الى جانب أن اللغة القبطية ظلت طويلا بعد الفتح وهى أداة التعبير بين الناس .

ونحن نعرف أن الاسلام نفسه وهو الدافع الأول لاجادة التعبير بالعربية لم يبدأ انتشاره فى مصر الا بعد المائة الاولى ، كما اننا نعرف أن الشعراء العرب نزلوا بالفسطاط أو بالقطائع وحيث القادة والوزراء وذوو الثراء وأولو النعمة ممن يتحدثون بالعربية وربما كان هذا أيضا من أسباب افتقار كتب الأدب الى نماذج من شعر الاسكندرية العربى طوال هذه الفترة ، غير أن الذى حدث خلالها كان له الأثر العميق فى تكوين شخصية الشعر السكندرى فيما بعد ، ذلك أن موجات من المهاجرين قد وفدت الى المدينة لعلّ أعلاها مدا تلك التى حدثت سنة ١٩٨ هـ اذ بلغ عدد المهاجرين من الاندلسيين (الرابضين) خمسة عشر الفا فى مرة واحدة ، وربما كان هذا هو الذى مهد لهم احتلال الاسكندرية وانشاءهم لجمهورية منفصلة عن باقى القطر ، واذ كانت فترة الاحتلال هذه لم يمتد أجلها ، الا أنها أعطت الاسكندرية — لأمد طويل — صفة المدينة ذات الحكم المحلى شبه المستقل ..

ويبدو هذا واضحا فى العهود التى أعطيت لبعض الولاة .. اذ كانت تستثنى فيها الاسكندرية من ولاية الوالى على مصر ، أو ينص عليها ، وكذلك مهد هذا الوضع الطريق أمام كثير من العلماء المشارقة والمغاربة وبخاصة من الأندلسيين الذين توالى مجيئهم فيما بعد ، والذين نشهد الى الآن مزاراتهم فى المدينة ونعرف الكثيرين منهم أفضالهم فى التآليف الدينية والدنيوية ..

- ٧ -

ولما كانت الاسكندرية ثغرا من أهم الثغور الاسلامية فقد اتجه كثير من المسلمين وبخاصة من المغاربة الى المرابطة فيهـا ، مع الجنود القائمين بالذود عنها يبثون فيهم الشجاعة ويعدون أنفسهم ليوم يقاتلون فيه في سبيل الله ، وهي وجهة طيبة كان لهـا صدى عميق في نفوس المؤمنين ، ومن ثم راحت تغذيها أقوال نسبت الى التابعين وأتباعهم ، تحدثنا عن الاسكندرية ومكانتها في أسلوب يستمد ظلاله المؤثرة من منابع العقيدة الدينية ، فهذا الامام السيوطي يروى لنا في « حسن المحاضرة » ان عبد الله بن مرزوق الصوفي تحدث فقال (لما نعى الى ابن عمي خالد ابن يزيد وكانت وفاته بالاسكندرية لقيني موسى بن علي بن رباح وعبد الله بن لهيعة والليث بن سعد متفرقين كلهم يقولون أليس قد مات بالاسكندرية ؟ فأقول بلى .. فيقولون هو حي يرزق عند الله ويجرى عليه أجر رباطه ما قامت الدنيا وله أجر شهيد حتى يحشر على ذلك) وينسبون الى الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال (أربعة أبواب من الجنة مفتحة في الدنيا ، الاسكندرية وعسقلان وقزوين وجدة) (١) وكان يمكن أن يظل هذا الاحساس النبيل ، على ما فيه من جنوح عن الحقيقة ، ملهما كريما ، يهدى الناس الى الايثار ، ويحبب اليهم التضحية لولا أن انحرف بعضهم فاستكان الى الراحة ، وقنع من الجهاد بالذكر واكتفى من السعي وراء أسباب الحياة بانتظار مايجود به ذوو النيات الحسنة والحكام .

على أننا لايعنينا هنا هذا التحول بقدر ما يعنينا أنه أصبح عنصرا مؤثرا في المجتمع السكندري وبالتالي فهو رافد من روافد شعره

ويضاف الى هذا بقايا رواسب من ثقافات يونانية ورومانية وقبطية تفاعلت مع الثقافة العربيـة والاتجاهات الأندلسية والمغربيـة ومن ثم اندمجت هذه الكيانات في مظهر واحد ، تمثل صداه الذى تأخر في الرنين بعض الوقت في هذا الشعر الذى سنتناوله في الصفحات التالية .

وبعد .. فاني أحسب أني قد كونت صورة تعبر على ايجازها عن التراث الحضاري الشعري بالاسكندرية قبل عهودها الاسلامية وتمهد لنا الطريق الى المدينة لنصل اليهـا ونلتقي بشعرائها ونعيش معهم في ظلال هذه الموروثات جميعا ، بعد أن تمثلتهـا المدينة وأصبح أرباب البيان فيها يتحدثون بلسان عربي مبين .

---

(١) حسن المحاضرة للسيوطي ١٠١



القسم الثاني

شعر الإسكندرية وملامح من الحياة فيها في العصرين الفاطمي والأيوبي



- ١ -

الليل يرخي سدوله على ساحل عدن في حين يرسل القمر غلائله الفضية على ظلين أغرتهما هـــدأة الليل فانطلقـــا على الشاطىء الساجى يتلمسان الحنان فى نسماته ، وأشاعت الغربة الشفافية فى نفسيهمـــا فراحا يتطلعان بأعين الشوق الى المدينة التى استلقت فى اغراء رائع هناك بعيدا على شاطىء بحر الروم ٠

وهتف أولهما ـ أبو بكر احمد العبيدى ـ من قرارة نفسه ٠

يا راقد الليـــــل بالاســـــكندرية لى
من يسهرالليل ـ وجدا بى وأسهره

وكان رفيقه ـ أبو العباس احمد الأبى ـ فى هذه اللحظة يتـأمل مواكب الغمـــام ، وهى تسبح فى ملكوتها الســـاحر ، فاسترجعته نفثة صديقه تلك وأثارت كوامن أشجانه ومن ثم أجابه بعد تنهيدة عميقـــة ، وهو يرنو الى البدر المتألق فى صفحة الأفق ٠

وأشـــــهد البدر مرتاحـــا لرؤيتـــه
لعـــل طرف الذى أهـــواه ينظره

أى وفاء يحمله الشاعران لمحبوبتيهما المقيمتين هناك ٠ فى المدينـــة الجميـــــلة ـ الاسكندرية !! وأى شعور دافىء حنون ذلك الذى يشعر به السكندرى الغريب حين تقله أرض غير أرضه ، وتظلله سماء تتصاعد اليها أنفاس لاتشاركه مشاعره ؟

الحق أن لبنات الاسكندرية الهيفاوات ذوات الدل ، ولشوارعهـــا المضيئة الطرقات وقصورها الشامخة ذات العماد ، وخمائلها الفواحـــة بالعطر ، ولياليها ذات البهجة الطليقة ، سحرا أى سحر وأثرا بالغا فى نفوس أبنائها مبلغا لايمكن أن تستأثر به أية بقعة من بقـــاع الفتنة فى العالم كله ٠

وربما وجدنا فى مقطوعة الشاعر السكندرى أبى الربيع سليمان بن

فياض ما يبرر هذه العاطفة الجياشة نحو أرض المدينة الغنية بذكرياتها ، الثرية بمواطن السحر فيها :

أرض سحبت وأترابى تمائمنـــــا طفلا وجررت فيها ناشـــئا رسنى
انى التفت فكم روض على نهـــر أو استمعت فكم داع على غصن
كم لى بآلاف هاتيك المنـــازل من الف وسكان تلك الدور من سكن
ما اخترت قط على عهدى بقربهم حظا ولا بعت يوما منـــه بالزمن

- ٢ -

والاسكندرية وقتئذ فيما يقول ابن الأثير «مدينة تزخر بالبساتين الأنيقة ، والمتنزهات الفائقة ، ترتفع فيها القصور والجواشن الدقيقة البناء المحكمة الجدر والأبواب» (١) •

ومن أجمل معالمها المنار العظيم الذى فتن كثيرا من الشعراء الوافدين فتغنوا بقصائدهم فى وصفه كهذا الذى نقرؤه للشاعر أبى عبد الله محمد ابن أبى الحسن حفيد الأديب ابن عبد ربه صاحب العقد •

لله در منـــار الاســـكندرية كم يسمو اليه على بعـد من الحدق
من شامخ الأنف فى عرنينه شمم كأنه باحث فى دارة الأفق
يكسر الموج منه جانبى رجـــل مشمر الذيل لايخشى من الغرق
للمنشآت الجوارى عند رؤيتـه كموقع النجم من أجفان ذى أرق

كذلك كانت هذه المنارة مجالا لشعراء الاسكندرية مجتلى لابداعهم ومعرضا يتبارون عنده فى ابداء فنهم •

صعد الشاعران أبو الحسن على بن الدورى وابو الفتح بن قلاقس فوقها ذات مرة وهى تسمق فى شموخ واذ أخذتهما روعة المنظر ، اقترح ابن قلاقس على صديقه أن يصفه ، فاستجاب اليه وقال :

وسامية الارجاء تهدى الى السرى ضياء اذا ما حندس الليل أظلما
لبست بها بردا من الأنس صافيا فكان بتـــذكار الأحبـة معلمـا
وقد ظللتنى من ذراها بقبـــة ألاحظ فيهـــا من صحابى أنجما
فخيل أن البحر تحتى •• غمامة وانى قد خيمت فى كبد الســما

---

(١) صبح الاعشى للقلقشندى ج ٣ ص ٤٠٨ •

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولقد طرب ابن قلاقس لهذه الأبيات وأعجب بشاعرية صديقه فأنشد يصف المنارة ، ويصف كذلك شعر صديقه فيها :

ومنزل جاوز الجوزاء ·· مرتقيا كأنما فيه للنسرين أوكار
راسى القرارة سامي الفرع فى يده للنون والنور أخبار وآثار
أطلقت فيه عنان النظم فاطردت خيل لها فى بديع الشعر مضمار
ولم يدع حسنا فيه أبو حسن الا تحكم فيه ·· كيف يختار
على المنارة لما حل ذروتها بجوهر الشعر بحر منه زخار
مازال يذكى بها نار الذكاء الى أن أصبحت علما فى رأسه نار

والحق أن هذا المنار فى ذاك الوقت كان احدى عجائب الدنيا ، وقد كتب عنه ابن جبير الأندلسى فى رحلته المشهورة فقال : «ومن أعظم ماشاهدناه من عجائبها ـ يقصد الاسكندرية ـ (المنار) الذى هو آية للمتوسمين وهداية للمسافرين ، يقصر عنه الوصف ، وينحسر دونه الطرف ، الخبر عنه يضيق ، والمشاهدة له تتسع ، وأما داخله فمرأى هائل واتساع معارج ومداخل وكثرة مساكن حتى ان المتصرف فيها ، والوالج فى مسالكها ربما ضل الطريق (١،٢) ·

- ٣ -

ومتنزهات الاسكندرية ذات الغدران التى تميس تحت ظلال أدواحها أوحت هى الاخرى لشعرائها بكثير من المقطوعات الجميلة وهذه واحدة منها للشاعر ابن مكنسة ·

ذات غدير خلته صرح زجاج مردا
ثم انثنى منعطفا مرتعشا ·· مرددا
خاف من الريح وقد هبت به ·· فارتعدا
كأنما يد الصبا مدت عليه زردا

وهذه مقطوعة أخرى من قصيدة للشاعر ظافر الحداد يصف فيها روضة على الخليج ·

والماء يبدو فى الخليج كأنه أيم (٣) لسرعة سيره محفور

(١) مكان المنارة الآن حصن قايتباى ·
(٢) مابين المعقوفتين زيادة من الكاتب للايضاح ·
(٣) الأيم = ذكر الحية البيضاء ·

والروض فى حلل النبات كأنما فرشت عليـــه ديابج وخزور
والزهر يوهـــم ناظريه بأنه ظهرت به فوق الرياض كنوز
فأقاحه ورق (١) وســـاقط طله در ونور بهـــاره ابريز
وكأنما القمرى ينشد مصرعا من كل بيت والحمـــام يجيز

وهذه أبيات من قصيدة للشاعرة تقية الصـورية في وصف احدى الرياض :

والروض مبتســـم بنـور أقاحه لما بكى فرحا عليـــه غمامهـــا
والنرجس الغض الذى أحداقه ترنو لتفهم ما يقول خزامهـــا
والورد يحـكى وجنة محمرة انحل من فرط الحياء لثامها

ويبدو في هذه المقطوعة كلف الشاعرة بالمقابلة بين الابتسام والبكاء فى البيت الاول كما يبدو أثر طبيعة المرأة الشرقية من حيـاء وخفر فى البيت الثالث •

كما كانت هذه المتنزهات مسرحا للغيد الحسان يتنقلن بين أزهارها ويشعلن الوجد فى أفئدة روادها • ومن الرسالة التى بعث بها القـاضى الأعز بن المؤيد الى على بن ظافر نستطيع أن نلمح كيف كان الجمـــال السكندرى فى ظلال هذه الرياض يثير شاعرية الشعراء من أبناء المدينة •
(تسايرت أنا والقاضى أبو العباس احمد بن يحيى بشاطىء خليج الاسكندرية من جهة القنطرة المعروفة بقنطرة الســـوارى وقد رقصت أشجاره على غناء أطياره ، وملأ لها ساقى الغمام كئوس جلناره • فبينما نحن نتناشد من نفيس رقيق الاشعار ، ونتعاطى من كئوس رحيق الاخبار ونتعجب من سماء ذلك الماء كيف خلت من البدور ، ومن نجوم تلك الأزهار مع طلوع شمس النهار كيف لاتغور واذا بجوار هناك جوار ، وبدور من قبل السوارى فقلت :

لله أى بـــــدور من السوارى سوار

فقال أبو العباس :

من كل هيفاء جرسى الـ وشـــاح خرسى الســوار

فقلت :

لاحت فحلت وحلت قلبى وعقد اصطبارى

---

(١) الورق بكسر الراء = الفضة •

فقال :

تنوب فرعـــا ووجها عن الدجى والنهـــار

فقلت :

فنـــاظراهـــا وقلبى ما بين راض وضـــار

فقال :

وخدهـــا وفؤادى من جلنـــار ونار (١)

ويصف ظافر الحداد كيف التقى بطيف محبوبته فى احدى هـــذه الرياض بقوله :

وصادح فى ذرى الأغصان نبهنى منغفوة كان فيها الطيف قدطرقا
فكان بين تلاقينـــا وفرقتنـــا كما تبسم برق غـــازل الأفقـــا

- ٤ -

كذلك تركت قصور الاسكندرية فى دواوين شعرائها آثارا رائعة نتمثل منها بقصيدة ابن قلاقس التى منها :

قصر بمدرجة النسيم تحدثت فيه الرياض بسرها المســـتور
خفض الخورنق والسدير(٢) سموه وثنى قصور الروم ذات قصور
لاث الغمـــام عمـــامة مكية وأقـــام فى أرض من الـــكافور
غنى الربيع به محاســـن وصفه فافتر عن نـــور يـــرق ونـــور
فالدوح يسحب حلة من سندس تزهو بلؤلؤ طلهـــا الموفور
والنخل كالغيد الحســـان تقرطت بسبائك المنظـــوم والمنثـــور
والبحر يرعد متنـــه فكأنه درع تسن بمعطفى مقـــرور
وكأننا والقصر يجمـــع شـــملنا فى الافق بين كواكب وبـــدور

وهى كذلك تحفل بالأوانس الفاتنات كاللواتى تيمن الشاعر ظافر الحداد فقال فى دار حفلت بباقة ناضرة منهن ٠

سائل الدار ان سألت خبيرا واستجر بالدموع تدع مجيرا

---

(١) بدائع البدائه لعلى بن ظافر ٠
(٢) الخورنق والسدير قصران عظيمان ذكرت كتب التاريخ انهما كانا ببلاد العرب ٠

هى دار العيش العزيز بما ضمنت قضيبا لدنا وظبيا غريرا(١)
ما تخيلت أنهـا جنة الخـلد الى أن رأيت فيهـا الحورا (٢)
يا لواة الديون هل فى قضـاء الحسن أن يمطل الغنى الفقيرا(٣)
احفظوا فى الاسار قلبا تمنى شغفا أن يموت فيكم أسـيرا
وقتيـلا لكم ولا يشتكيـكم هل رأيتم قبلى قتيلا شـكورا ؟

– ٥ –

فهل تستحق الغادة السكندرية من عشاقها كل هذا العناء ؟ الحق أن لخطواتها صدى فى قلوب الشعراء ، ولأسهم عينيها مرمى فى الأفئدة الظامئة المتطلعة اليها ، ولتأود قدها فعل السحر فى قلوب محبيها ، فهذه الحسناء ذات الأعين الوسنانة ، وتلك سـمة من سمات الجمال فى ذلك العهد – اذ لم تكن العيون الجريئة قد شقت طريقها بعد هذه الغـادة تثير الشاعر ظافر الحداد فيقول :

فى لحظهـا مرض للتيه تحسبه وسنان أو فقريب العهد بالرمد
تريك ليلا على صـبح عـلى غصن على كثيب كموج الرمل مطرد

وتلك التى تلتفت وراءها لترى ماذا صنعت برشاقتها فى قـلوب الناظرين اليها ، يقول ابن قلاقس فيها :

لوت حين ولت لنـا جيدهـا فأى حيـاة بدت فى وفاة ؟
كمـا ذعر الظبى من قانص ففر وكرر فى الالتفـات

وهذه أخرى تمشى فى خطوات وليدة ضيقة يمليها عليها دلالها فتثير شاعرية ابى الحسن بن معبد فيقول :

ومهفهف طالت ذوائب فرعـه كالليل فاض على الصباح المسفر
قصر الدلال خطاه فاعتلقت به لى مقلة عن حبـه لم تقصر

ثم هذا سرب من الغوانى يلتقى بهن الشـاعر ابن قلاقس وهن يزدهين بزينة مسترجلة فيقول :

عقدوا الشعور معاقد التيجان وتقـلدوا بصـوارم الأجفان
ومشوا وقد هزوا رماح قدودهم هز الـكماة عـوالى المران
وتدرعوا زردا فخلت أراقمـا خلعت ملابسهـا على الغزلان

(١) و (٢) و (٣) – ابيات متصلة .

كل هذه الصور المشرقة التي تتألق في طرقات الاسكندرية وكل هذه الثورة الطائلة من الحسن والفتنـــة والاثارة التي تسكن دورهـــا وقصورها وتبعث دفء الحياة في عواطف أهلها ، وكل ألوان الجمـــال الموروث في سلالاتها ، المؤتلفة عبر الزمن ، هي التي فتحت أمام شعراء المدينة طريق الغزل ، فقدموا لنا منه باقات ناضرة . تحمل وهج الحب وحرارة الشوق وثراء الكلمة ، ورشاقة التعبير فالى جانب النماذج التي أوردناها في ثنايا هذا البحث نستمع هنا الى نماذج أخرى تبين لنا كيف كان هذا الشعر حافلا بالصـــور الجميلة ، بعيدا في كثير من حالاته عن التكلف الذي يتضح أحيانا في كثير من شعر الحب القاهري ، فمن قصيدة لأبي الفضل عبد المنعم بن عبد العزيز السكندري (١) يقول فيها :

يا ساحر الطرف ليلي ماله سحر وقد أضر بجفني بعـــدك السهر
ولست أدري وقد صورت شـــخصك في
قلبي المشوق . أشـــمس أنت أم قمـــر
ما صـــور الله هـــذا الحسن في بشر
وكان يمكن الا تعبـــد الصـــور
أموت وجـــدا ومالي منك مرحمة
وكم حذرت ولم ينفعني الحـــذر
أستغفـــر الله . لا والله مـــا خلقت
عيناك الا لـــكي يفنى بهـــا البشر

وله من قصيدة رقيقة :

أيهـــذا المتجني ما الذي رابك مني ؟
بالذي لم يغنني عنـــ ـــك وقد أغناك عني
لا تنغص عيشـــة أنت لها أقصى التمني

ومن قصيدة لابن قتادة :

أسباك منه جيده أم طرفه أم شـــكله أم دله أم ظرفه ؟
يا ناظري أم ورد وجنته الذي يلتذ للعين البصيرة قطفـــه
صافحته فشكت أنامله الأذى وتألمت من لمس كفي كفـــه

---

(١) عاش بالاسكندرية وسافر الى بغداد فمات بها سنة ٦٠٣ هـ .

ومن أخرى لواصف الملك بن الدباغ :

يا رب ان قـــدرته لمقبـــل غـــيرى فللأقـــداح أو للأكؤس
فاذا قضيت لنا بعين مراقب في السر فلتك من عيون النرجس

ومن قصيدة لأبى حميد الاسكندرانى :

هوان كسى جسمى ثيابا من الضنى
فأصـبحت فيهـا كالخيـال لمبصرى
فصل أو فقاطع لست أجفوك عندها
ولو مت من شوقى وفرط تذكرى
فاعذب ما ألقى الهـوى وألـذه
اذا جار محبـوبى وقل تصـبرى

. ومن أخرى لابن معبد القرشي :

يا حادى العيس رفقا بالحبيب فقد
طار الفـؤاد وقل الصبر والجـلد
لعـل حبى يرى ذلى .. فيرحمنى
بنظرة علهـا تشـفى الذى أجـد

ومن قصيدة لظافر الحداد :

هذا الفراق وهذه الأظعان
هل غير وقتك للدموع أوان ؟
ان لم تفضها كالعقيق فكل ما
تدعوه من سنن الهوى بهتان
ان كنت تدخر الدموع لبينهم
فالآن قد وقع الفراق وبانوا

ومن قصيدة لاسماعيل بن مكنسة :

أعـاذل ما هبت ريـاح مـلامه
بنار هوى الا وزادت تضرما
فكلنى الى عين اذا جف ماؤها
رأت من حقوق الحب أن تذرف الدما
فكم عبرة أعطت غرامى زمامها
عشـية أعملن المطى المزمما

وعين حماها ان يلم بها الكرى
أحاديث أيام تقضين بالحمى
ولله قلب قارعته همومه
فلم يبق حد منه الا تثلما

- ٧ -

على أن النساء فى هذا العصر لم يكن متاعا خالصا همهن الحب والزينة وارضاء العشير • ونعما هذا ـ وانما شاركن بجوار ذلك فى بناء المجتمع الفكرى والأدبى أيضا فكان منهن الفقيهات الجليلات ، والمحدثات الفضليات (١) وكان منهن كذلك الشاعرات الملهمات

ونورد هنا نماذج للشاعرة تقية الصورية (٢) نستطيع أن نتبين فيها سماتها النفسية فى وضوح وجلاء ، فقد كتب اليها أحد الشعراء أبياتا تعرض فيها لأبيات مدحت بها نفسها ، ذلك حيث يقول :

وما شرف أن يمدح المرء نفسه
ولكن أفعالا تذم وتمدح
وما كل حين يصدق المرء قلبه
ولا كل أصحاب التجارة تربح
ولا كل من ترجو لغيبك حافظ
ولا كل من ضم الوديعة يصلح

فردت عليه بأبيات نسمع فيها صدى اعتزازها المستمد من ثقتها الكبرى بنفسها ومن عرفان أكبر بقيمتها وهذه هى :

تعيب على الانسان اظهار علمه
أبالجد هذا منك•أم أنت تمزح ؟
فدتك حياتى قد تقدم قبلنا
الى مدحهم قوم وقالوا فأفصحوا
وللمتنبى أحرف فى مديحه
على نفسه بالحق ، والحق أوضح

---

(١) منهن ترفة بنت احمد الرازى ٥٣٤ هـ والحفرة بنت المبشر ٥٢٨ هـ •
(٢) أم على تقية بنت غيث بن على الارمنازى ولدت فى دمشق ٥٠٥ هـ وعاشت بالاسكندرية

أروني فتاة في زماني تفوقني
وتعلو على علمي وتهجو وتمدح

وهي تتعمق المعنى أحيانا حتى تأتي به دقيقا كما في الشطرة الرابعة من البيتين التاليين :

نأيت عنكم وفي الاحشاء جمر لظى
وسقم جسمي لما آهواه عنواني
اذا تذكرت أياما لنا سلفت
أعان دمعي على تغريق نسياني

وفي الأبيات الآتية توشك الشاعرة أن تصرخ اعلانا لنقمتها على جمود بعض الناس لولا أن بحر السريع الذي صاغت فيه الشاعرة قصيدتها قد ضيق المجال أمام انفعالها وصده أن يأخذ مداه :

خان أخلائي وما خنتهم
وأبرزوا للشر وجها صفيق
وكدروا الود القديم الذي
قد كان قدما صافيا كالرحيق
وباعدوني بعد قربي لهم
وحملوا قلبي مالا أطيق

ويروى لها صاحب نفح الطيب الأبيات التالية التي تصف شرور الخمر ويبدو فيها كلف الشاعرة بالبديع في تجنيسها لقوافيها الثلاث :

لا خير في الخمر على أنها
مذكورة في صفة الجنه
لأنها ان خامرت عاقلا
خامره في عقله جنه
يخاف أن تقذفه من علا
فلا تقي مهجته جنه

وتقية بعد ذلك ، فتاة بارعة الجمال فائقة الحسن اشتغلت بالأدب ودارت بينها وبين الأدباء والشعراء مراسلات أدبية وقد أوردنا مثالا منها، وهذه أبيات لشاعر سكندري تنم عما لتقية من وسامة خلق وسماحة نفس وكانت الشاعرة قد أهدت اليه هدية من التوت الاحمر فكتب اليها يشكرها :

وتوت أتانا ماؤه في احمراره
كدمعي على الأحباب حين ترحلوا
هدية من فاقت جمالا وفطنة
وأبهى من البدر المنير وأجمل
فلا عدمت نفسي تفضلها الذي
يقصر وصفي عن مداه ويعدل

ولقد ردت عليه بأبيات لم يبق لنا منها سوى :

أتاني مديح يخجل الطرف حسنه
كمثل بهي الدر في طي قرطاس

هذا وقد توفيت تقية الصورية سنة ٥٦٩ هـ ٠

- ٨ -

وليالي الاسكندرية في ذلك العهد كانت تحفل بكل ما يثير العاطفة ويلهب الحس من لهو وطرب وقصف ، وقد خلف الشعراء آثارا حية بانطباعات هذه المثيرات في أنفسهم ٠

وهذه ألوان من شعر ابن قلاقس يصف فيها مباهج هذه الليالي فمن قصيدة له يصف مجلس غناء :

ومغن تناولت يده العو
د فعادت بنا الى الأفراح
بين ريح من المزامير أسرى
بين أجسادنا من الأرواح
وصباح قد عقدوا طرز الليل
جمالا على الوجوه الصباح

ومن مقطوعة أخرى ينتقد فيها مجلس غناء لا تجانس فيه فيقول في سخرية تدل على حسن تذوقه لفن الغناء ٠

ينافر ايقاعه صوته
فهذا يزيد وذا ينقص
ويتبعه زامر مثله
تبيع له نفس أوقص (١)

(١) اوقص = قصير ٠

فان قام ما بيننا راقصا
فكل الى بيتـــه ·· يرقص

وهو يصف لنا فى مقطوعة ثالثة أحد الراقصين من الضاربين بالدف وكان ذا جمال باهر فيقول :

مر بيمنـــاه على طاره
يلمســـه أحســن ما لمس
وواصل النقر على اصبع
تغنيــه لو شاء عن الخمس
فحدثوا عن قمر مشرق
يلعب بالبرق على الشمس

وهذه ساقية حسناء في مجلس شراب يصفها بقوله :

اشرب معتقة الطلا صرفا على
رقص الغصون بروضة غناء
من كف وطفاء الجفون كأنمـــا
تســعى بنار أضرمت فى ماء
فى سحر مقلتها وخمرة ريقها
شرك العقول وآفة الأعضاء

- ٩ -

فاذا تركنا مجالس اللهو وأردنا أن نشهد مجالس الأدب طالعتنا صحف ذلك العصر بصور رائعة تشهد بما كان عليه أهله من حسن تذوق للفن ورهافة فى الحس وترف فى المعيشة ، ويقدم لنا على بن ظافر أحد هذه المشاهد فى كتابه بدائع البدائه ·

« أخبرنى ابن المؤيد رحمه الله قال : اجتمعنا مع جماعة من أدباء أهل الاسكندرية فى بستان لبعض أهلها ، فحللنا روضا تثنت قامات أشجاره وتغنت قينات أطياره ، وبين أيدينا بركة ماء كجو السماء فنثر عليها بعض الحاضرين ياسمينا زان سماءها بزواهر منيرة ، وأهدى الى لجتها جواهر نثيرة ، فتعاطينا القول فى تشبيهه ، وأطرق كل منا لتحريك خاطره وتنبيهه ، ثم أظهرنا ما حررنا ونشرنا ما حبرنا فأنشد العباس بن طريف الخراط :

نثروا الياســـمين لمـا جنـوه
عبثا فاســتقر فوق الماء
فحسبنا زهر الكواكب تحكى
زهر الأرض فى أديم السماء

وأنشد الأديب أبو الحسن على بن سيف الدين المصرى :

نثروا الياســمين لمـا جنـوه
فوق ماء أحبب به من ماء
فحكى زهره لنـا اذ تبـــدى
زهر الشهب فى أديم السماء

قال .. وكان الذى صنعته :

نثروا الياسمين فى لجة المـاء
فخلنـــا النجوم وسط السماء
فكأن السماء فى باطن الأرض
أو الدر طف فوق المـــاء

قال ... وسمع أبو عبد الله بن الزين النحوى القصة ولم يكن حاضرا معنا فقال :

نثر الغلام الياسمين ببركة
مملوءة من مائها المتدفق
فكانما نثر النجوم بأسرها
فى يوم صحو فى سماء أزرق

قال على بن ظافر (١) فصنعت :

زهر الياسمين ينثر فى الماء
أم الزهر فى أديم السماء ؟
ظل يحكى عقود در على صد
ر فتاة فى حلة زرقاء . »

وأعتقد خلافا لما قاله الراوى أنه لم يكن الشعراء منفردين بأفكارهم ساعة أن نظموا هذه المقطوعات فان هناك اتفاقا فى ابتداءات المقطـوعات الثلاث الأولى كما أن هناك اتفاقا فى القافية .

---

(١) ما بين المعقوفتين (زيادة ليست فى الأصل) .

وأعتقد أن أروع ما فى هذا المشهد هو تمثيله للون من ألوان الحياة كان الأدب عنصرا بارزا فيه أما الناحية الفنية فيه فانها لا ترقى الى المستوى الفنى العام لشعر هذا العصر .

- ١٠ -

وهذه قصة أخرى رواها العمار الاصفهانى فى الخريدة والعماد الحنبلى فى شذرات الذهب . ويدلل بها ابن خلكان فى وفيات الاعيان على شاعرية ظافر الحداد ، ومؤدى هذه القصة : أن خاتم الامير السعيد ابن ظفر حاكم الاسكندرية كان قد ضاق على خنصره ، فأرسل الى الشاعر ظافر الحداد يستدعيه ليرده له فحضر وفعل ثم أنشده والمجلس منعقد حوله :

قصر عن أوصافك العالم ... فاعترف الناثر والناظم
من يكن البحر له راحة ... يضيق عن خنصره العالم

فاستحسن الامير الشعر ووهبه الخاتم ولعل ظافرا لحظ أن الامير داخله الشك فى شاعريته فاغتنم فرصة وجود غزال مستأنس رابض بين يدى الامير ورأسه فى حجره فقال :

عجبت لجرأة هذا الغزال ... وأمر تخطى له واعتمد
واعجب به اذا بدا جاثما ... وكيف اطمأن وانت الاسد ؟

فازداد الامير اعجابا به وبشاعريته ومنحه جائزة ، وهنا اراد أحد الحاضرين أن يعرف المدى الذى يمكن لشاعرية ظافر أن تسعفه فيه ، فاقترح عليه أن يصف الشبك الذى كان مسدولا على الباب ليمنع دخول الطير الى القاعة فأنشد على الفور :

رأيت ببابك هذا المنيف ... شباكا فأدركنى بعض شك
وفكر فيما راى خاطرى ... فقال البحار مكان الشبك

وبلغ اعجاب الامير غايته وهو يمنحه جائزة أخرى ... ويقول للذى اقترح عليه ذلك : «كفى والا نزع ما على أجسامنا» .

وهى قصة تدل فيما أرى على توقد الذهن وسرعة الخاطر والقدرة على اقتناص الفكرة ، ثم نظمها فى سهولة ويسر ، تدل على هذا بأكثر مما تدل على أصالة الشاعرية وعمقها ، تلك التى تؤكدها نماذج أخرى عديدة ورائعة لهذا الشاعر سنورد بعضها فى موضعه وفى ترجمته الخاصة ، وهى تدل كذلك على روح أحكام ذلك العصر فى الاستماع الى هذا اللون من الادب ، والاستمتاع به والاثابة عليه .

وهذه المجالس وماكان يدور فيها من حوار رشيق بين روادها وما يتناقلونه من طرائف أدبية ومايتناشدونه من أشعار مطربة ، وما يتفكهون به من فكاهات بارعة تشيع روح المرح والسرور بين السماء تركت من الاثر مارقق من خشونة الخلق السكندرى وأشاع فى العصر روحا من السخرية اللاذعة التى تبدو جلية فى مقطوعات الهجاء والمداعبة التى وصلت الينا وفيما يلى بعض هذه النماذج التى يحسن بنا الاستماع اليها ومحاولة التعمق فيها حتى يمكن أن ندرك خصائص السكندريين فى هذا اللون من الشعر وهى نماذج تتأرجح بين القسوة الجارحة والدعابة الهيئة والتناول العميق وهذه مقطوعة للشاعر ابن مكنسة يسخر فيها من صديق له أعلن التوبة .

يارب عربيد اذا ما انتشى ... اربى على المجنون فى مسه
قالوا لقد تاب .. ووالله ما ... يتوب أو يجعل فى رمسه
وانما توبته هذه ... عربدة أيضا على نفسه

وهذه أخرى للشاعر محمود بن ناصر يداعب صديقا له يشتغل بالطب :

صديقنا المستطب .. نادرة ... قد أخذت منه اعين الناس
أنياب غول ومشفرا جمل ... وراس بغل وذقن نسناس

ولمحمد بن الخمشى يهجو «عين الملك»

الا ان ملكا انت تدعى بعينه ... جدير بأن يمسى ويصبح أعورا
فان كنت عين الملك حقاكماادعوا ... فان له العين التى دمعهاجرى

ولعبد المحسن الرقيق :

ماكنت أدرى قبل منظره ... أن المسيخ الدجال قد ظهرا
من قال ان الاله خالقه ... فانه بالاله قد .. كفرا

ولابن قلاقس يهجو أحد الزامرين :

تعبت فما أتيت لنا بشىء ... فكيف تكون ساعة تستريح ؟
فلا تكثر علينا فى محال ... بزمرك صح ان الزمر ريح

ولعل أخف ألوان الهجاء وأرقها هو مايتمثل فى بيتى الشاعر الأندلسى الرائد أمية بن عبد العزيز بن أبى الصلت فى أحد أصدقائه :

أنا ارعـاه مـسكرها ، وبقلبى ... منـــه مايقلق الجبـال أقله
فهو مثل المشيب أكره مـرآه ... ولكن أصـــونه .. وأجـــله

وهمـا يشـبهان فى اتجاههما العـام بيتى الشـاعر ابن جبير فى صديق له :

لى صـــديق خسرت فيـه ودادى
حين صـارت سـلامتى منه ربحـا

حسن القـــول سيىء الفعـــل
كالجـزار سمى واتبع القـول ذبحا

ومن الهجاء الذى يتصل الخيال فيه بالاثر الدينى قول قتادة فى المكربل بعد موته :

قالوا المكربل قــد قضى فأجبتهم
مات الهجاء وعاش عـرض العـالم
ماتسـمعون ضجيج مـالك معلنـا
وجنـوده لامرحبـا بالقـــادم

- ١٢ -

وفى هـذه المجـالس ، وفيهـا مافيها من دوافع المنافسة وبواعث الاجادة ، ابدع الشعراء فى الوصف وبخاصة فى وصف ماكان يقع تحت انظارهم فيها ، أو ماكان يقترح عليهم النظم فيه ، وبذلك اتاحوا لنا أن نستمتع بهذه اللمحات الفنية الجميلة وقد سـبق لنا تقـديم حوار شعرى حول منظر الياسمين الذى ألقى به غلام فى الماء .

ونعرض هنا بضعة نماذج لطائفة من شعراء هذا العصر يصورون لنا فيها بعض المشاهد المألوفة فى دقة وابداع . فهذا ظافر الحداد يصف السمك :

يروقك نيئـا وفى قليـــه ... فتنظر فى حـــالتيه العجــب
نصـول السـكاكين مصـقولة ... وفى القلى تمويههـا بالذهــب

وابن قلاقس يصف بطيخة صفراء :

اتـانا الفقيـــة ببطيخـــة ... وسكينة قـد اجيدت صـقالا
فقطع بالبرق بـدر الدجـى ... وناول كل هـــلال هـــلالا

ويصف السفن فى البحر بقوله :

تــرى المواخــر تجــرى فى زواخره
فتــرتقى فى أعاليــــه وتنحــــــدر
من كل ســـوداء مثل الخال يحملها
بوجنــة منــه فيهــا للضحى خفر

«وزين القضاة» يصف القطائف :

للــــه در قطـــــائف محشــوة
من فســتق دعت النــواظر واليدا
شـــــبهتها لما بــدت فى صــــحنها
بحقــاق عاج قــد حشين زبرجــدا

والشاعر السكندرى «ابن عباد» يصف أقحوانة :

والاقحــوانة تحــكى وهى ضاحــكة
عن واضــح غــير ذى ظلم ولا شنب
كأنهــا شمســه من فضــة حرست
خــوف الوقوع بمسمار من الذهب

ويصف الشاعر الاندلسى «ابو الصلت» نزيل الاسكندرية جميلا قد تلفع بشال أحمر :

اقبــــل فى قــــرمزية عجــب   قــد صبغت لون خــده الشرق
كأنمــــا جيــــــده وغرته   من دونهــا اذ بــدون فى نســق
عمــود فجــر من فــوقه قمــر   دارت به قطعـــــة من الشــفق

ثم نورد بيتين للقاضى «سند بن عنان» (١) يصف لنا كيف اجتز اول شعرة بيضاء أشرقت بمفرقه وكيف سخرت منه هذه الشعرة وذلك فى قوله :

وزائــرة للشــيب حلت بمفـــــرقى
فبــادرتها بالنتف خـــوفا من الحتف
فقــالت على ضعفى استطلت ووحدتى
رويدك للجيش الذى جــاء من خلفى

---

(١) توفى بالاسكندرية فى ٥٤١ هـ ودفن بمسجد صغير تؤدى فيه الصلاة الآن بحى الفراهدة

وكأثر من آثار هذه المجالس ظهر لون من الشعر يمتاز بوضوح خيوط الثقافة التى تسرى فى ثناياه ، ونتمثل هنا بمقطوعات من هذا الشعر على أن هناك نماذج اخرى عديدة يمكن تتبعها فى هذا القسم من البحث ، والمقطوعة الاولى للشاعر أبى عمران موسى السخاوى وتبدو فيها ظلال من البداوة العربية فى التركيب اللفظى والخيال فى البيتين الاول والثانى فاذا انتقلنا الى الثالث والرابع وجدناالشاعر وقد استعار كلمات النجاشى لليل وقيصر للصباح ثم يصف محبوبه بأنه يرتدى زى الاتراك ، والاتراك كانوا فى هذا العصر يمثلون عنصرا ممتازا فى المجتمع من الناحيتين الجمالية والمادية :

هـذى ديارهـم وتلك نـوار
نأت النـوى وتـدانت الأوطـار
ولرب موحشـة قطعـت ومـؤنسى
طـرف أغـر وكوكب غـرار
حتى استـجاش على نجاشى الدجى
من قيصرى السـدفة الاسـفار
وأتى بزى الترك (يـرفل) فى قبـا
ء الشـهب حـول جيـوبه أزرار

والمقطوعة الثانية للشاعر أبى الربيع سليمان بن فياض ويبدو أثر المعرفة بالاتجاهات الدينية فى عصره فى البيت الاخير منها :

باتت علـى مـن الاراك تنـوح — تخفى الصـبابة مـرة وتبـوح
عجمـاء ماكادت تبين لسـامع — ولهـا حـديث فى الفؤاد صريح
امريضة الاحشاء من فرق النوى — مهـلا بشـملك انه لصحيح
أوما رأيت تجـلدى وانا الذى — شملى على سنن الفـراق طريح
تتقـاذف الايام بى فـكأننى — لجسـوم أصـحاب التنـاسخ روح

والمقطوعة الثالثة من قصيدة لظافر الحداد يتحدث فيها عن تلك الليالى الجميلة التى كان يقضيها هو ورفاقه الادباء فى مصاحبة الشاعر أمية بن عبد العزيز بن أبى الصلت :

ليـالى يدنينـا جـواب أعادنا
من القرب كالصنوين ضمهما ساق

وما بيننا من حسن لفظك روضـــة
بهـا حسـدت منـا المسامع احداق
حديث .. حديث .. كلماطال موجز
مفيـد الى قلب المحـــدث سـباق
يزجيـه بحـــر من علومك زاخـر
له كل بحـــر فائض اللج رقـــراق
معان كأطــواد الشــوامخ جـــزلة
تضمنها عـذب من اللفظ غيـداق
به حـــكم مســتنبطات غـــرائب
لأبكارها الفـر الفـلاسف عشـاق
فـلو عاش رسطاليس كان له بهـا
غـــرام وقلب دائم الفـكر تـواق

والمقطوعة الرابعة للشاعر نصر بن عبد الرحمن الفزارى وهى تدل على مدى تغلغل حب الكتب فى نفس قائلها وحرصه عليها وحسرته على مصيرها بعده ، ذلك حيث يقول :

اقلب كتبـا طـــالما قـد جمعتهـا
وأفنيت فيها العين والسمع واليدا
وأصبحت ذا ضن بهـــا وتمسك
لعلمى بمـا قد صفت فيها منضـدا
واحـذر جهـدى ان تنـال بنـائل
مبيـد وأن يغتـالها غائـل الردى
واعلم حقـــا اننى لســت باقيـا
فياليت شعرى من يقلبها غـــدا ؟

والمقطوعة الخامسة لابن قتادة وهى وان كانت غزلية الا أن الفاظها ذات ايماءات ثقافية :

نظرى اليك يزيد فى نظـــرى
فعلام تحجبنى عن الـــنظر
ياجملة الحسن التى اقتسمت
منهـا المحـاسن جملة البشر
لهـواك بين جـــوانحى كتب
قــد عنونت بالدمع والســهر

وهناك لون من الشعر الثقافى المنظوم فى موضوعات علمية وهو يخلو فى الغالب من الروح الشاعرية لذلك نكتفى بالاشارة اليه .

- ١٤ -

والى جانب هذه المدارس الدنيوية كانت هناك المجالس الدينية التى كانت تعقد فى مجالس المدينة الكثيرة العدد وفى المدارس الدينيةالتى انتشرت انتشارا واسعا فى الاسكندرية حيث يستمع الناس الى بحوث اساتذة أجلاء من أهل المدينة ومن الوافدين اليها من بلاد القطر المصرى والاقطار العربية الاخرى ومن الاندلسيين الذين كانت لهم مكانتهم العلمية والعددية . وكان لابد لهذا التيار الدينى الضخم أن يترك أثره فى الشعر السكندرى ، وكان هذا الاثر واضحا حتى فى الشعر الذى نظم فى غير الاغراض الدينية ، وهذه ابيات من قصيدة خمرية لابن قلاقس يقول فيها :

ومصفرة قد أسقم الدهر جسمها
فصحت وفى النيران تصفو السبائك
عجوز عليها سبحة من حبابها
تصلى على قوم بها وتبارك
عكفنا على حافاتها .. فكأنها
مشاعر تقوى أوثرت أو مناسك

ونرى فيها الفاظ « سبحة وصلاة وبركة وعكوف ومشاعر وتقوى ومناسك » هذا غير الصورة العامة ذات الايحاءات الدينية . ومن خمرية أخرى لواصف الملك أبى الحسن بن الدباغ :

مستفاض من معجزات الشمول   انها تظهر الضحى فى الأصيل
فأرونى كيف المساء أسير   والأسى فى سلاسل السلسبيل
أى معنى هدى ولفظ ضلال   ان تريك الأفول غير أفول

ونرى فيها كسابقتها كلمات «مستفاض ومعجزات وضحى وسلاسل وسلسبيل وهدى وضلال » الخ ...

فاذا انتقلنا الى الغزل صادفتنا أيضا فى بعضه هذه المعانى ذات الظلال الدينية . فنقرأ مثلا مقطوعة محمد بن الخمشى :

قال لى العـــاذل فى حبـه　　وقولـه زور وبهتـــان
ما وجه من أحببتـه قبـلة　　قلـت ولا قولك قـرآن

فتستمع فيهـا الى كلمات « زور وبهتان وقبلة وقرآن » هـذا غير الايحاء العام للبيتين ، ونلمح أمثال هذه الظلال فى الأبيات الغزلية التالية للطرطوشى :

قمـر أتى من غـير وعـد　　حفت شـمائله بسـعد
قبلتـه ورشـفت ما فى　　فيه من خمـر وشـهد
فمزجت مزن السلسبيل　　بزنجبيـــل مسـتمد
ولثمـت فاه من الغروب　　الى الصـباح المسـتجد

- ١٥ -

هذا الى جانب الشـعر الدينى الصرف الذى نكتفى منـه بالنماذج التالية ، فمن قصيدة لابن غسان الكاتب :

توكل على الله جـل اسـمه　　ولا ترجون سـواه تعـالى
وكل امـرىء يرتجى غـيره　　لـكشف الملمات يرجو محالا

ومن أخرى للمفضـل بن أبى الحسن اللخمى ويبدو فيهـا اهتمامه بتجنيس القوافى :

أيا نفس بالمأثور عن خير مرسـل　　وأصحابه والتـابعين تمسكى
عسـاك اذا بالغت فى نشر دينـه　　بما طاب من عرف له أن تمسكى
وخافى غدا يوم الحسـاب جهنمـا　　اذا لفحـت نيرانهـا أن تمسـك

ومن قصيدة لاحمد بن على الرشيد :

سـمحنا لدنيـانا بمـا بخلت به　　علينـا ولم نحفل بحـل أمورها
فياليتنـا لمـا حرمنـا سرورها　　وقينا أذى آفاتهـا وشرورها

ويبدو كلف ابن جبير بالجناس وقد كان البدعة السائدة فى عصره فى هذين البيتين :

اذا بلغ العبـد أرض الحجـاز　　فقد نال أفضـل ما أم له
فان زار قبر نبى الهـدى　　فقـد أكمـل الله ما أمـله

وفى هذين البيتين :

اياك والشـهرة فى ملبس　　والبس من الأثواب أسمالهـا

تواضع الانسـان في نفسه أشرف للنفس وأسمى لهـا

ومن قصيدة لابن قلاقس :

الفكر في الرزق كيف يأتي شيء به تتعب القـلوب
فجانب الناس وادع من لا تكشف الا به الخطوب

وهذه مقطوعة لأمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت يقول فيها :

ما أغفـل المرء وألهـاه يعصي ولا يذكـر مولاه
يأمـره بالغي شـيطانه والعقل لو يرشد ينهاه
غرته دنيـاه فـلم يستفق من سـكرها يوما لأخـراه
ياويحه المسكين .. ياويحه ان لم يـكن يرحمـه الله

وللامام أبي بكر الطرطوشي :

اعمـل لمعـادك يا رجل فالناس لدنيـاهم عملوا
واذخـر لمسـيرك زاد تقى فالقوم بلا زاد رحـلوا

ويقول الامام الحافظ السلفي (١) في تمجيد علم الحديث :

ان علم الحـديث علم رجال تركوا الابتـداع للاتباع
فاذا الليـل جنهم كتبـوه واذا أصبحوا غدوا للسماع

ولظافر الحداد في الدعوة الى الزهد :

اذا اذنت لك الـدول تذكـر كيـف تنتقـل
فلو سمحت بهـا الأيا م لم يسـمح بهـا الأجـل

هذا الى نماذج أخرى نلتقي بها ضمن الاشعار التي استشهدنا بهـا في هذا البحث ..

- ١٦ -

وكان من الطبيعي أن يساير شعراء الاسكندرية ، في هذه الفترة من الزمن ، الركب العام فيمدحون الحكام ومن دونهم ، فاذا طالعنا صورا من مدائحهم وجدناها وقد غلبت عليها السمة التي طغت على قصائد المدح

(١) توفي الحافظ السلفي سنة ٥٧٦ هـ عن مائة سنة وست ومن مؤلفاته بالنسبة الى الاسكندرية كتاب معجم السفر الذي روى فيه لمجموعة من الذين أقاموا بالاسكندرية أو مروا بها ومنه نسخة مصورة بدار الكتب المصرية .

القاهرية ، تلك هى المبالغة والاغراق فى تمجيد الممدوح والارتفاع به آلى ما لا يرتفع اليه سائر البشر وقد وفدت بذور هــذا الاتجاه من المغرب مع الدعوة الفاطمية التى كان شاعرها (١) يمدح خليفته بمثل قوله :

ما شــئت لا ما شــاءت الاقدار   فاحكم فأنت الواحد القهــار

والفاطميون كمــا نعلم قسم من الشــيعة ، والشيعيون يقدســون الأئمة من آل البيت ويرون فيهم من العصمة والطهر ما لا يرون فى سائر الناس بل ويرتفــع بهم بعضهم ـ والفــاطميون منهم ـ الى ما فوق درجة الملائكة فيخاطب أحد شعرائهم حامل مظلة الخليفة بقوله :

امديرها من حيث دار لشــد ما   زاحمت تحــت ركابه جبريلا

وربما كان مرجع هذا الى أن بعض الشيعة ـ والفاطميون منهم ـ كانوا يعتقدون أن الله يعد الامام اعدادا خاصا قبل بدء ظهور الخليفة ، حتى اذا جاء دوره فى الحياة البشرية وأوتى الخلافة تلقى علمه عن طريق الوحى الالهى وهم يعتقدون كذلك أن للقرآن ظاهرا وباطنا ٠ أما ظاهره فهوما يعلمه الناس وأما باطنه فقد اختص الله به الأئمة(٢) الى غــير ذلك من معتقدات أخرى لا نرى هنا مجالا لعرضهــا ونكتفى هنا فى تقديس الأئمة والغلو فى مدحهم بأبيات لشاعر لم نعرف الا لقبه « الاسكندرانى » يمدح فيها العزيز بالله وقد ولى الخلافة بعد أبيه المعز :

أأمــدح رهطا غــير رهط محمــد   وفى الجيــد عهــد للامام وموثق
ولافضل لى فى ذا ، بل الفضل فضل من   بهم يحـــرم الله الأنام ويرزق
أئمــة دين الله مــذ قام دينــه   وأنوار هــذا الخلق من قبل يخلق
محبتهم فرض على النــاس واجب   وعصيانهم كفر الى النــار موبق
ولولا هـــم لم يخلق الله خلقــه   ولم يك فى الدنيــا ضياء ورونق
لئن فقــد النــاس المعز لدينــه   لقــد قام بالدنيــا العزيز الموفق

وهذه الأبيات من قصيدة أســماها صاحبهــا « ذات الدوحة » وهى مرسومة بالــكتابة على شكل شجرة ذات فروع اشــارة الى قول منسوب للنبى الكريم « أهل بيتى شجرة أصلها ثابت وفرعها فى السماء » (٣) ٠

(١) الشاعر ابن هانىء الاندلسي ، وقد توفي قبل أن يصل الفاطميون الى الاسـكندرية ويلقب بمتنبى الغرب ٠

(٢) يشارك بعض الصوفيين الشيعة هـــذا الاتجاه نحو القرآن ويضـــيفون الى آل بيت النبى « من اصطفى الله سبحانه من عباده الاولياء » ٠

(٣) القصيدة كاملة فى كتاب « أدب مصر الفاطمية » للدكتور محمد كامل حسين ٠

فاذا انتقلنا الى مدائح الافراد ممن هم دون الأئمة وجدنا أثرا لهذه المبالغة في قصائد هذا العهد والتى نكتفى منها بالالوان التالية :

فمن قصيدة لابن مكنسة يمدح بها الأفضل :

ملك بكفيه وأسيافه	تقسم آجال وأرزاق
ذلت لنعماك نفوس كما	ذلت لأسيافك أعناق

ومن أخرى لابن الكاتب ويبدو فيها اهتمامه بالبديع الذى كان سمة العصر ، وقد حاول الشاعر هنا تجنيس الكثير من الكلمات :

أجل أنت من كل ملك أجل	وفى راحتيك المنى والأجل
فلا الباب عن مرتج مرتج	ولا الوفر عن معتز معتزل

على أن الاسكندرية مع ذلك لم تخل من شعراء حاربوا الملق فى هذه العهود حيث نسمع لابن جبير مثلا هذه الابيات :

من الله فاسأل كل أمر تريده	فما يملك الانسان نفعا ولا ضرا
ولا تتواضع للولاة فانهم	من الكبر فى حال تموج بهم سكرا
واياك أن ترضى بتقبيل راحة	فقد قيل عنها انها السجدة الصغرى

- ١٧ -

ولم تبعد الاسكندرية الشاعرة فى هذا العصر كثيرا عن مسايرة التيار القومى ،و لا عن القيام بواجبها فى تعبئة القوى الروحية والمعنوية ضد طوفان الاستعمار الصليبى الذى بدأ يكتسح سهول الشرق الخصيبة ويغمر الارض من دماء بنيها ، هؤلاء الذين أقاموا من أجسادهم أسوارا ترد هذه الجموع المسعورة عن أراضيهم المقدسة . فمع قيام الجنود والوطنيين بالواجب العملى فى الدفاع العسكرى عن المدينة وتأييدهم للقائد صلاح الدين الايوبى (قبل أن يصبح سلطانا) وصمودهم معه فى أثناء الحصار الصليبى للمدينة الذى دام بضعة أشهر من سنة ٥٦٤ هـ ومع قيامهم مرة أخرى بالقضاء على الاسطول الصقلى الذى هاجم المدينة سنة ٥٦٩ هـ ، مع هذا الكفاح فى الميدان العسكرى كان الشعراء فى الميدان الادبى يتغنون بالنصر الذى يحرزه قواد الوطن خارج الاسكندرية مادحين بسالة الجيوش الاسلامية شامتين فى أعدائهم كلما حلت بهم احدى الهزائم، ونكتفى هنا بمقطوعتين لشاعرين أحدهما من أهل المدينة وثانيهما من الوافدين اليها ، فى القصيدة الاولى يتحدث ظافر الحداد عن احدى

هـذه الهزائم التى منى بها الصليبيون وعن مقتل أحد قواد هـذه الحملة وذلك ضمن مدحته للوزير طلائع بن رزيك ذلك حيث يقول :

عن سيف دين الله سل ارناطا | حيث المنية كأسها يتعاطى
والمشرفية قد حكت فى جيشه | فى العل والنهل القطا الفراطا
قد سام طير الكفر منه منسرا | أشقى وعاين مخلبا عطاطا
هوملبس حيث العدا فى الحرب من | حلل النجيع مجاسدا ورباطا
فجياده تشكو مزاحمة القنا | وترد خرصان الرماح سياطا
هو فارس الاسلام يحفظ بالظبا | من دينه الأطراف والأوساطا
كم قد أثار من الأسنة أنجما | لما أثار من العجاج عطاطا
فتخاله ملكا رمى بشهابه | فى الروع شيطان الحروب نشاطا

وأما المقطوعة الثانية فمن قصيدة لابن جبير يهنىء بها السلطان صلاح الدين الأيوبى عندما استرد بيت المقدس ويصف فيها كفاحه وقوة جيشه وزهده فيما ينعم به غيره من الملوك :

أطلت على أفقك الزاهر | سعود من الفلك الدائر
فأبشر فان رقاب العدا | تمد الى سيفك الباتر
جنودك بالرعب منصورة | فناجز متى شئت أو صابر
فكلهم غارق هالك | بتيار عسكرك الزاخر
ثأرت لدين الهدى فى العدا | فآثرك الله من ثائر
وقمت بنصر اله الورى | فسماك بالملك الناصر
وجاهدت مجتهدا صابرا | فلله أجرك من صابر
تبيت الملوك على فرشهم | وترفل فى الزرد السابرى

ثم يتحدث عن استرداد صلاح الدين لبيت المقدس فيخاطبه بقوله :

فتحت المقدس من أرضه | فعادت الى وضعها الطاهر
وجئت الى قدسه المرتضى | فخلصته من يد الكافر
وأعليت فيه منار الهدى | وأحييت من رسمه الداثر
لكم ذخر الله هذى الفتو | ح من الزمن الأول الغابر

بقى أن نقرأ نماذج من شعر الاندلسيين من الذين أقاموا بالاسكندرية أو وفدوا اليها لمدة طويلة ، ونحن نعلم أن الجالية الاندلسية بالمدينة كانت تكون قطاعا هاما من سكانها ، وقد كان لهذا القطاع أكبر الأثر فى المجال الشعرى ، كما كان لأدبائه وعلمائه مقام الريادة فى كثير من ألوان الثقافة بها ، ونستطيع أن نلمح فى شعر شعرائهم حدة الشعور بالغربة فقد كانوا فى الأغلب قريبى العهد بمفارقتهم أوطانهم ، ولا تزال المؤثرات العاطفية تربط بينهم وبين رفاق الصبا وأخدان الشباب فى الاندلس برباط وثيق (١) .

ومن قصيدة لأبى بكر الطرطوشى (٢) تقرأ هذه الابيات الحزينة :

اقلب طرفى فى السماء ترددا	لعلى أرى النجم الذى أنت تنظر
وأستعرض الركبان من كل وجهة	لعلى بمن قد شم عرفك أظفر
وأستقبل الأرواح عند هبوبها	لعل نسيم الريح عنك يخبر
وأمشى ومالى فى الطريق مآرب	عسى نغمة باسم الحبيب ستذكر
وألمح من ألقاه من غير حاجة	عسى لمحة من نور وجهك تسفر

وله من قصيدة أخرى :

يقولون ثكلى ومن لم يذق	فراق الأحبة لم يثكل
لقد جرعتنى ليالى الفراق	كئوسها أمر من الحنظل

ويقول أمية بن عبد العزيز بن أبى الصلت (٣) :

لا تسألنى عن صنيع جفونها	يوم الوداع وسل بذلك من نجا
لو كنت أملك خدها للثمته	حتى أعيد به الشقيق بنفسجا
أو كنت أهجع لاحتضنت خيالها	ومنعت ضوء الصبح أن يتبلجا
وبثثت فى الظلماء كحل جفونها	وعقدت هاتيك الذوائب بالدجى

---

(١) نجد وجوها عديدة للمقارنة بين اسباب حدة الشعور بالغربة في شعر الاندلسيين بالاسكندرية وحدة هذا الشعور عند الشعراء العرب في المهاجر الامريكية .

(٢) توفى سنة ٥٢٠ هـ ودفن بمسجده بالسكة الجديدة بالاسكندرية ومن مؤلفاته كتاب «سراج الملوك» وقد طبع مرارا .

(٣) توفى سنة ٥٢٨ هـ وقد مكث بالاسكندرية عشرين عاما فيما يروى صاحب « نفح الطيب » (ه)

وهذه نماذج من شعر الغربة لابن جبير الاندلسى (١) :

طول اغتراب وبرح شوق لا صبر والله لى عليه
اليك أشكو الذى ألاقى يا خير من يشتكى اليه
ولى « بغرناطة » حبيب قد غلق الرهن فى يديه
ودعته وهو فى دلال يظهر لى بعض ما لديه
فلو ترى طل نرجسيه ينهل فى ورد وجنتيه
أبصرت درا على عقيق من دمعه فوق صفحتيه

ومما يبعث الشجى قوله :

أقول وقد حان الوداع وأسلمت قلوب الى حكم الأسى ومدامع
أيارب أهلى فى يديك وديعة وما عدمت صونا لديك الودائع

وقوله :

غريب تذكر أوطانه فهيج بالذكر أشجانه
يحل عرا صبره بالأسى ويعقد بالنجم أجفانه

وتحضره صلاة العيد فتثور بوجدانه الذكريات :

شهدنا صلاة العيد فى أرض غربة بأحواز مصر والأحبة قد بانوا
فقلت لخلى فى النوى جد بمدمع فليس لنا الا المدامع قربان

ويسمع ابن جبير وهو بالاسكندرية أن صديقه ابن الخطيب أبا محمد عبد الله التميمى قد ولى قضاء « سبتة » وكان ابن جبير قد أقام بها اقامة ماتت فى أثنائها زوجته ، فتثير ولاية صديقه على قضائها الذكريات المطوية ولهذا بعث ابن جبير اليه ببيتين يذكر فيهما زوجته ويود لقاء صديقه :

بسبتة لى سكن بالثرى وخل كريم اليها أتى
فلو أستطيع ركبت الهوا فزرت بها الحى والميتا

ومن قصيدة لأبى الحسن موسى بن سعيد :

رفيقى جاوزنا حدود مواطن صحبنا بها الأيام طلقا محياها

(١) ولد بالاندلس سنة ٥٤٠ هـ ووصل الى الاسكندرية فى أول مرة سنة ٥٧٨ هـ وتوفى بها سنة ٦١٤ هـ وقبره فيما يؤكد الكثيرون هو المعروف بسيدى جابر حيث مسجده الكبير وقد قامت وزارة الأوقاف أخيرا باعادة بنائه .

وما أن تركناها لجهل بقدرها ولكن ثنت عنا أعنة سقياها
فسرنا نحث السير عنها لغيرها الى أن يمن الله يوما بلقياها

هذا وقد ترك الاندلسيون الذين غادروا الاسكندرية كذلك أعمق الأثر في نفوس أبنائها ونتمثل هنا بأبيات من قصيدة للشاعر ظافر الحداد في وداع الشاعر أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت عند سفره من الاسكندرية بعد اقامة طويلة بها :

وما طائر قص الزمان جناحه وأعدمه وكرا وأفقده الفا
تذكر رعيا بين أفنان بانة حوافي الخوافي ما يطرن به ضعفا
اذا التحف الظلماء ناجى همومه بترجيع نوح كاد من دقة يخفي
بأشوق مني مذ أطاعت بك النوى هوائية مائية تسبق الطرفا

- ١٩ -

ويبدو أثر التجارب التي استفاد بها موسى بن سعيد العنسي الاندلسي في القصيدة التي نظمها بالاسكندرية في سنة ٦٣٠ هـ وفيها ينصح ولده « عليا » (١) وكان قد وفد الى المدينة وهو في طريقه الى القاهرة فاستبقاه حتى أتم نظمها وهي قصيدة طويلة مشهورة ومذكورة بتمامها في الجزء الثالث من نفح الطيب وأولها :

أودعك الرحمن في غربتك مرتقبا رحماه في أوبتك

ويصف هذه القصيدة بأنها :

خلاصة العمر التي حنكت في ساعة زفت الى فطنتك
فلا تنم عن وعيها ساعة فانها عون الى يقظتك

ثم يأخذ في اسداء التوجيهات التي يراها صالحة لولده وهي توجيهات سلوكية نافعة نختار منها هذه الابيات التي هي من وجهة نظرنا أكثر دلالة على شخصية قائلها ومدى نظرته الى أمور الحياة في المجتمع الذي يعيش فيه :

وكل ما يفضي لعذر فلا تجعله في الغربة من اربتك
ولا تجادل أبدا حاسدا فانه أدعى الى هيبتك

---

(١) مؤلف كتاب « المطرب في اخبار المغرب » .

أفش التحيـات الى أهلهـا	ونبه الناس على رتبتك
ولا تزل مجتمعـا طالبـا	من دهرك الفرصةفي وثبتك
ولا تكن تحقـر ذا رتبـة	فانه أنفـع فى غربتـك
وحيثما خيمت فاقصـد الى	صحبة من ترجوه فى نصرتك
ولا تقـل أسـلم لى وحدتى	فقد تقاسى الذل فى وحدتك
واقنـع اذا لم تجد مطمعـا	واطمع اذا أنقذت من عثرتك
كم من صديق مظهر نصحه	وفـكره وقـف على عثرتك
اياك أن تقـربه انه	عون مع الدهر على كربتـك

وموسى بن سعيد كما هو واضح فى هذه الابيات رجل عرك الدهر وتعلم من مجتمعه ووعى وجهات نظره وعرف قواعد السلوك الواجب على الغريب اتباعها فى المجتمع الجديد عليه ، اذا أراد أن يضمن لنفسه فيـه مركزا طيبا ، فهو يوصى ابنه ألا يجادل حساده ، فان المجادلة مع الحاسد الذى لا يقر له بالفضـل ستجعله ينقب عن عيوبه بل ويجسمها ثم هـو لا يراعى أدب الخطاب معه ، ومن هنا ستهبط قيمـة الصورة التى رسمها فى أعين الناس • وهو يريه كيف يفشى التحية بين الناس بالشكل الذى يحفظ عليـه وقاره ويضمن له استمرار محبتهم ، ثم ينصحه أن يحترم الرؤساء وأن يتقرب اليهم ويتخذ منهم عضدا وسندا يتـكىء عليه ، فانه اذا ما أحيط برعاية الكبار كان خليقا ـ من باب أولى ـ بأن ينال احترام الصـغار (١) ثم يريه كيف لا يكون انطوائيـا فان انطواء الغريب يدعو الناس لاهماله، وهو انما يبنى مجده على المخالطة، ثم هو يوصيه بالقناعة، ولكن متى ؟! ان القناعة التى يوصيه بها يجب أن تكون عندما لا يجد هناك مطمعا يمكن أن يطمع فيه ! وأخيرا لا ينسى أن ينصحه باتقاء مكر الاصدقاء وحسدهم فان من كانت هذه وسائله فى الظهور على مسرح مجتمعه لابد وأن يوجد حوله من يتلمس له الخطأ الذى يفقده النعمة التى يمكن أن يكون قد نالها •••

ويمكن أن نقول ان هذه القصيدة تمثل القواعد المثـلى للسلوك من وجهة نظر الغريب الذى يحاول اقامة كيان مرموق له فى أرض الغربة •

ولعلهـا نفس القواعد التى كان الاجانب فى مصر والبلاد الشرقية يتبعونها الى عهد قريب •

---

(١) هناك وجه للمقارنة بين هذه الفقرة من نصائح القصيدة ومقدمة المقامة السكندرية للحريرى [*]

ولقد وددت أن أقصر هذا القسم من البحث على شعر الاسكندرية في العصر الفاطمي دون المساس بالعصر الأيوبي ولكني وجدت العصرين وقد تداخلا تداخلا شديدا حتى لقد أوشكا أن يكونا عصرا واحدا ..

والحق انه لم يكن ميسورا أن أقف على حافة العصر الفاطمي فلا أتعداه ، ذلك لأن كثيرا من الشعراء عاشوا في العصرين معا ، وأن من العسير علينا أن نعرف التاريخ الصحيح الذى نظم فيه الشعراء قصائدهم اللهم الا بعض أشعار المناسبات ، وما أقلها في الشعر السكندري ، ولهذا اعتبرنا العصر الأيوبي في كثير من حالاته امتدادا للعصر الفاطمي ..

صحيح أن هناك فارقا عقائديا هاما بين العصرين ولكنه لم يؤثر تأثيرا جذريا على سكان الاسكندرية ولا على الكثرة الغالبة من شعرائها ، فان كثرة الوافدين اليها من العلماء السنيين في العصر الفاطمي ميعت حدة انتشار المذهب الشيعي فيها ، فلم يؤثر التأثير الكافي في تلوين عقيدة أهلها ، وقد عنى الفاطميون في بعض اتجاهاتهم بالحرية الفكرية فساعد هذا على بقاء المذهب السنى بالمدينة ، ولم يبد من أثر الاتجاه الشيعي غير ملامح الحب الشديد لآل البيت النبوى الكريم والشجى الحزين لمأساتهم ،وهذه ظاهرة لها جذور في أعماق المصريين الذين هم عاطفيون بطبيعتهم وهي تتفق أيضا مع المذاهب الصوفية التي أخذت في الانتشار على نطاق واسع والتي ينتسب شيوخها أو يحاولون في الغالب الانتساب الى آل البيت حتى يمكن أن يتم لهم التأثير الروحي على أتباعهم ..

وقد كان بعد الاسكندرية عن مقر الحكم وعن الارتباط المباشر بسلطة الحاكم من الأسباب التي ساعدت على انشاء كثير من المدارس الدينية ذات الطابع السنى من مثل مدرسة الطاهر بن عوف (١) والحافظ بن السلفي (٢) .

كذلك لم يكن ميسورا أن أقف على الحافة المكانية لمدينة الاسكندرية فلا أتعداها في اختيار للنماذج الشعرية السكندرية ، ذلك لتنقل كثيرا من شعرائها داخل الاقليم المصرى وخارجه في زمن لم تكن للحدود بين الشعوب العربية فيه قيمة . ولهذا وجدت موقفي ازاء هذه المشكلة عسيرا،

---

(١) بناها الوزير رضوان بن الحسن سنة ٥٣٢ هـ .

(٢) بناها الوزير على بن السلار سنة ٥٤٦ هـ .

ولكنى حاولت تيسيره بشتى الوسائل فبذلت كل ما أملك من طاقة حتى اخترت ما اثبته من نماذج ، مستعينا على ذلك بالشواهد التى فى الكتب الادبية والتى تساعد على صحة نسبتها الى المدينة غير مبرىء نفسى من القصور فى هذا المجال الدقيق ..

ولكى تكمل الصورة التى حاولنا رسمها للاسكندرية من شعر أبنائها فى هذه الفترة نورد هنا ثلاث تراجم لثلاثة من شعرائها يمثلون ـ فيما أرى ـ الاتجاهات المختلفة فى شعر المدينة ، كما يمكن القول بأنهم يمثلون الى حد ما طبقاتها الاجتماعية ..

أما الأول فهو شاعر ينتمى بالتبعية والمعاشرة الى طبقة الاعيان وان كان هو نفسه لا يملك من شىء ، ويمثل شعره مزاجا خاصا يعتمد على ذوق مرهف وأناقة فكرية ـ رغم تبذله أحيانا ـ وعلى ثقافة أدبية واسعة يبدو أثرها فى شعره ذلك هو الشاعر اسماعيل بن مكنسة ..

وأما الثانى فهو شاعر من عامة الشعب كان من العمال فهو حداد اشتغل بالأدب فأوصله هذا الى مجالسة الرؤساء والكبار ، وروى له الكثير من العلماء منهم العالم الجليل الحافظ السلفى الذى كان يلقب بمسند الدنيا فى عصره .. ذلكم هو الشاعر ظافر الحداد ..

وأما الثالث فشاعر من طبقة العلماء الذين نالوا حظا من الثقافة الدينية التى يبدو أثرها فى شعره واضحا ، ذلك هو الشاعر أبوالفتح نصر ابن قلاقس .

وقد سبق لنا أن استعرضنا فى هذا البحث كثيرا من النماذج الشعرية لهؤلاء الشعراء واستشهدنا بمقطوعاتهم فى كثير من الموضوعات، على أننا لن نكرر فى تراجمهم هذه النماذج مرة أخرى ...





ابن مكنسة



عاش أبو الطاهر اسماعيل بن مكنسة بالاسكندرية فى زمن ولاية أمير الجيوش بدر الجمالى منقطعا الى أحد الرؤساء من النصارى ويعرف بأبى مليح ، ونظم فيه أغلب مدائحه ، فلما مات رثاه بعدة قصائد جيدة منها قصيدته التى نختار منها :

ماذا أرجى فى حياتى بعد موت أبى مليح

ما كان بالنكس الدنىء من الرجال ولا الشحيح

طويت سماء المكرمات وكورت شمس المديح

فغضب منه الأفضل وكان قد ولى الأمر بعد أبيه ولم يقبل منه مدائحه التى حاول أن يترضاه بها والتى منها :

مثلى بمصر وأنت ملك　　يقال ذا شاعر فقير
عطاؤك الشمس ليس يخفى　　وانما حظى الضرير

وقال له ماذا جاء بك وقد انقطع رجاؤك بموت أبى مليح ؟

فلما ساءت حالته تكفل به عز الدولة بن فائق أحد أمراء الاجناد وكانت بينهما مودة سابقة وقام بأمره الى أن مات ...

وقد ترجم له العماد الاصفهاني فى الخريدة وأمية بن عبد العزيز ابن أبى الصلت فى الرسالة المصرية .

وشعر أبى الظاهر بن مكنسة يمتاز بعمق المعنى ومحاولة ابتكار الفكرة غير المطروقة ، وصياغة المعانى القديمة صياغة جديدة وليست المقطوعة عنده مجرد خاطرة تنظم وانما هى عمل فنى مرسوم بعناية .

وقد سبق لنا أن استشهدنا بالكثير من شعره ونحاول هنا أن نأتى بنماذج أخرى قد تعين فى الوصول الى تقدير شاعريته ، فمن شعره قصيدة يصف فيها رمدا كان قد أصابه ويشكو الطبيب الذى يعالجه ، ومن هذه القصيدة قوله :

ما لنهـــاری كأنه الغســق وما لليــلى ما شــقه الفلق
وما لعينى أرى بهــا عجبا تغرق فى مائهـــا وتحترق
ولى طبيــب تشـــكو مراوده وتستغيث ، الجفون والحدق
شيافه (١) تطرد الشفاء اذا مر بعينى وكحـــــله الأرق
وان تمـادى عـلى زرتـكم وقائدای العصى والحـلق

ومن قصيدة يهجو فيها جماعة اخوة ويستثنى واحدا منهم بالمدح :

هم خبث الحديد وأنت مما يصفىجوهر السيف اليمانى
وان أورى زنادكـم شرارا فبين النـــار بون والدخان
وان جمعت أنابيبـا قنـاة فأين الكعبمن رأسالسنان!

ومن قصيدة يعتذر فيها لعز الدولة عن الاشتراك فى احدى الحملات العسكرية :

قل لمـولای اذ دعانی لأمر قمت فيــه له مقـام العبيد
ضعفت حيلتى وقل غنــائى ودنـــت غايتى ورث جديدى
وكأنى عـلى بعـــير ترانى آخر الناس فى لفيف الحشود
حيث لا يتقى لسانى ولا يثـ نى عنان المغير عنى نشيدى
ان رأيى اذا يســدد نحوى سهم رام لغير رأى ســديد
فاذا ما قتلت كنت خليقـا بدخولى جهنمـا وخـلودى
فأقلنى عثارها وابق للمجد وكبت العدا وغيظ الحسود

وشعره الغزلى حافل بالمعانى المبتكرة الجميلة ومن هذا الشعر قوله:

وأغيــد ما لوجنتــه وفيــه ولا ما فى زجاجتــه نظــير
سقى فأدار من عينيه أخرى لأمر ما تنوعت الخمور

وقوله من قصيدة :

ما باله يجفــو وقد زعـم الورى ان الندى يختص بالوجه النــدى
لا تخدعنــك وجنـــة محمرة رقت ففى اليـاقوت طبـع الجلمد
وزعمت أنى لست من أهل الهوى صـبا فقـل ما شئته ٠٠ وتقلد
والله ما أبصرت يومـــا أبيضـــا منــذ ابتليت بحب طرف أســود

---

(١) الشياف : خامات العلاج ٠

وكذلك قوله :

كم ليلة نادمت في ظلمائها بدرا وشمس الكأس مطلع زنده
مشمولة ياليت رقة طبعها في قلبه وصفاءها في وده
فكأنها من ريقه ، وحبابها من ثغره ، وشعاعها من خده

هذا وتقف أمامنا قلة ما ورد عن ابن مكنسة في المراجع التي تحت أيدينا ، عن الوفاء بما يستحقه من عناية في ايجاد ترجمة تتناول جوانب حياته وما غمض منها بالايضاح فانه مع ماله من شعر رائع لم ينل ما يستحقه من عناية الباحثين ولذلك نرى أغلب تراجمه في كتب الأدب عبارة عن اختيارات لفقرات من شعره تنتهي بتاريخ وفاته ، ولم يتوسع في الترجمة له نسبيا ـ فيما أعلمه ـ الا العماد الاصفهاني حيث نقل ـ فيما أعتقد ـ عن الرسالة المصرية لأبي الصلت ، قصة نواسيات ابن مكنسة ، اذ هما ينقلان في كتابيهما وفي أسلوب متشابه بعض الحوادث الدالة على ذلك ، ويقولان انه كان على صلة بعز الدولة بن فائق ثم يستشهدان بطائفة من شعره الذي تغزل فيه بالمذكر ..

وقد يكون هذا صحيحا وقد لا نجد فيما نقرأ له من غزل غير هذا الاتجاه ، الا أننا نحب أن نضيف الى هذا أن ذلك اللون من الغزل كان السمة الغالبة على شعر الحب في عصره حتى ولو لم يكن أصحابه من النواسيين .

ومع ذلك فاننا نورد هنا بعض النماذج الأخرى التي يمكن أن يرى فيها من يساير العماد وأمية فيما يرويانه ، دليلا على صحة ما أثبتناه عنه. فمن ذلك قوله يصف غلاما في ثوب أزرق :

مر بنا في ثوبه الأزرق كبدر تم لاح في المشرق
لا بارك الرحمن فيمن رأى حسن عذاريه ولم يعشق

وقوله في غلام مريض :

وقالوا براه السقم فاعتل جسمه عساه يرى في الصبر عن حبه عذرا
اذا كنت أهوى خصره لنحوله أأسلوه لما صار أجمعه .. خصرا ؟

وقوله :

لم أر قبل شعره ووجهه ليلا على ضوء الصباح عسعسا
والسكر في وجنته وطرفه يفتح وردا أو يغض نرجسا

وقوله من قصيدة أخرى :

وعسكرى أبدا حيثما تلقاه يلقاك بكل السلاح
حاجبه قوس وأجفانه نبل وعطفاه تثنى الرماح
فى لحظه سحر وفى خده ورد وفى فيه أقاح وراح
راح . وفعل الراح فيه كما يفعل بالغصن نسيم الرياح
شققت ثوب الصبر من بعده فليعذل العاذل وليلح لاح ..

هذا وقد توفى أبو الطاهر اسماعيل بن مكنسة سنة ٥١٠ هـ .

ظافر الحداد



نشأ ظافر الحداد بالاسكندرية نشأة شعبية وتذوق الأدب واشتغل بنظم الشعر فقربه هذا الى مجالس كبار العلماء فى عهده وقد استفاد كثيرا من صحبته للشاعر الأندلسى الكبير أمية بن عبد العزيز بن أبى الصلت الذى مكث بالاسكندرية مدة طويلة أوجد خلالها حوله جوا أدبيا خلاقا . حتى اذا عاد أمية الى بلاده بقيت علاقات الود قائمة بينه وبين الكثيرين من أبناء المدينة وشعرائها ومنهم ظافر الحداد الذى نلمح فى قصائده التى بعث بها اليه آثارا رائعة لهذه الصداقة التى أثمرت أدبا ممتازا نشعر من خلاله بمدى استفادة ظافر من هذه الصداقة الطيبة وقد قدمنا فيما سبق من صفحات هذا البحث أبياتا يودعه فيها . وفيما يلى أجزاء من قصيدة أخرى بعث بها من الاسكندرية اليه حيث أقام فى المهدية وقد سلف أن استشهدنا بجزء آخر منها :

ألا هل لدائى من فراقك افراق
هو السم لكن فى لقائك ترياق

فيا شمس فضل غربت ولضوئها
على كل قطر بالمشارق اشراق

لك الخلق الجزل الرفيع طرازه
وأكثر أخلاق الخليقة أخلاق

لقد ضاءلتنى يا أبا الصلت مذ نأت
ديارك عن دارى هموم وأشواق

اذا عزنى اطفاؤها بمدامعى
جرت ولها ما بين جفنى احراق

أخى سيدى مولاى دعوة من صفا
وليس له من رق ودك اعتاق

لئن أبعدت ما بيننا شقة النوى
ومطرد طامى الغوارب خفاق

فعندى لك الود الملازم مثلما
تلازم أعناق الحمائم أطواق

ثم يتحسر على الليالى الممتعة التى كانا يقضيانها بالاسكندرية يتناشدان فيها الأشعار ، يسبحان فى أجواء من الأدب الأصيل ٠

ألا هل لأيامى بك الغر عودة ؟
كعهدى وثغر الثغر أشنب براق(١)
لئن قصرت كتبى فلا غرو أنه
لعائق عذر والمقادير أوهاق (٢)
كتبت وآفات البحار تردها
فان لم يكن رد على فاغراق
بحار بأحكام الرياح فانها
مفاتيح فى أبوابهن واغلاق
ومن لى أن أحظى اليك بنظرة
فيسكن مقلاق ويرقأ مهراق

ويدل الشعر القليل الذى وصلنا عن ظافر انه كان من أقوى شعراء الاسكندرية فى ذلك العصر الهاما ومن أبرعهم شاعرية استمع اليه وهو يكاد يذوب رقة فى قوله :

رحلوا فلولا أننى أرجو الاياب قضيت نحبى
والله ما فارقتهم لكننى فارقت ٠٠ قلبى

أوفى قوله :

يذم المحبون الرقيب وليت لى من الوصل ما يخشى عليه رقيب

وهو يتظرف فى تهنئة قاضى الاسكندرية بحلول شهر الصوم فيقول عن رمضان انه :

ما سار حولا كاملا الا ليسرق منك معنى

وقد كان ظافر هذا ـ كما أسلفنا ـ حدادا ، يصوغ الحديد كما يصوغ القول ويؤلف منهما ما يروق العين أو يروق السمع ، استمع معى الى هذين البيتين اللذين قالهما على لسان كرسى حديدى من صناعته :

انظر بعينك فى بديع صنائعى وعجيب تركيبى وحكمة صانعى
فكأننى كفا محب شبكت يوم الفراق أصابعا بأصابع

وربما أخذ من أسماعنا ، ونال من اعجابنا ما يبدو من أثر لمهنته فى

(١ ، ٢) مابين الرقمين = الأبيات الواردة لظافر فى توديع أمية ٠

صياغته لشعره ، فان أثر المهنة واضح فى الأبيات التالية وقد أبرزنا الكلمات أو المعانى المستمدة من هذه الصناعة :

كأن نجـــوم الليل لما تبلجت   توقـد جمـر فى خلال رمـاد

***

هلل فان هلال العيد عاد بمـا   قد كنت تعهد من لهو ومن طرب
كحلقة من لجين ذاب أكثرهــا   لما تغـافل ملقيهــا عن اللهب

***

وعشـــية أهدت لعينك منظرا   جاد السرور به لقبلـــك وافدا
روض كمخضر العـذار وجـدول   نقشت عليه يد الشمال مباردا
والنخل كالغيد الحســان تزينت   ولبســن من أثمــارهن قلائدا

***

ما خلت أن النـار فى وجنـاته   حتى بدا فى عارضـــيه دخان

***

لولا لبيال لنا بالبـان ســالفة   كررت من زفراتى فيه فاحترقـا

ومن شعره الرقيق الجياش بالعاطفة قوله :

عتبت ولكننى لا أعى   وأين ملامك من مســمعى
وما قـدر عتبك حتى يزيل غرا   مـا تمكن من أضـــلعى
ومـا دام لومك الا وأنت تقـد   ر أن جنـــانى معى
مضى كى يودع ســكانه   غــداة الفـراق فلم يرجع

ومن قصيدة أخرى تجمع بين البساطة والرقة قوله :

لا فرق بينكم وبين فـــؤادى   فى حـال قربى منكم وبعـادى
فلقـــد حببتكم على علاتـــكم   كمحبـــة الآبـاء .. للأولاد
ونزلتمو منى وان لم تنصـــفوا   بمنازل الأرواح فى الأجســـاد
ورجوت سلوانا بسوء صـنيعكم عندى فصـــار ذريعـــة لودادى
قد كنت اقنع بالخيـال لو انكم   لم ترحلوا يوم النوى برقـــادى

ومن أبيات له يتحسر فيها على الشباب :

أسفى على ورد الشـــباب الزائل   أســـفا يطول عليه عض أناملى
ولى فلا طمع لعطفة هـــاجر   منـــه ولا أمل لأوبة راحـل

ولقد أسلفنا الكثير من شعره فى الاستشهادات العديدة الماضـية كما أوردنا قصته مع السعيد بن ظافر حاكم الاسكندرية والتى تدل على سرعة بديهته وقدرته على ارتجال النظم .

هذا وتوفى ظافر الحداد سنة ٥٢٩ هـ .





ابن قلاقس



نشأ ابن قلاقس أبو الفتح نصر الله بن مخلوف اللخمى السكندرى نشأة علمية دينية وأخذ عن علماء الاسكندرية المشهورة يومئذ بمدارسها الدينية ثم عين فى احدى الوظائف الرسمية واتصـــل بالحكام والوزراء يمدحهم ٠

ولقد كان كثير الرحلات والاسفار ، نرى ظلالا من هذا الاتجـــاه فى ديوان شعره الذى يمثل اتجاهاته المختلفة ٠

زار صقلية بعد أن انتزعها النورمانديون من أيدى العرب ونظم فيها شعرا منه هذان البيتان :

بلد اعـــارته الحمامة طوقهـــا وكساه حلة ريشه الطـــاووس
فكانما الأنوار فيه ســـــلافة وكأن ســـاحات الديار كئوس

كما زار اليمن وكثيرا من البلاد العربية ليرضى فى نفسه نزعـــة التجوال والتنقل فى البلاد ، ومن شعره الذى يدل على هـذه النزعة قوله فى مطلع قصيدة :

سافر اذا ما شـــئت قـــدرا ســـــار الهلال فصار بدرا
والمـــاء يكسب مـــا جـرى طيبـــا ويخبث ما اســتقرا
وبنقلة الـــــدرر النقيـــــة بدلت بالبحـــر ٠٠ نحـــرا

فاذا ما تناولنا نماذج أخرى من شعره لنستشف منها بعض ملامحه طالعتنا هذه الأبيات :

قم هات جامك شمسا عند مصطبح
وخل كأســـك نجما عنـــد مغتبق
هب النسيم وهب الصـــبح فاشـــتركا
فى نكهة من نسيم الروضـــة العبق
وبت بالكأس أغنى النـــاس كلهـــم
فالخمر من عســـجد والكأس من ورق
حبابهـــا وأحـــاديثى ومبســـمه
ثـــلاثة كلهـــا من لؤلؤ نســـق

وأحار عندئذ فأسأل نفسى ، أيمكن أن يكون هذا الشعر صدى لحياة ابن قلاقس فعلا ؟

أم أنه من باب ترويض القول الذى يلجأ اليه بعض الشعراء أحيانا راسمين بأخيلتهم أشكالا لما حرموا منه فى واقعهم ؟

وكدت أقول بالايجاب عن هذا السؤال الأخير ، فالرجل فيما يروى عنه ذو ثقافة دينية أظنها من انطلاقه ، لولا ان هناك نماذج أخرى من شعره ـ عرضنا بعضها فيما سبق ـ تصف لنا ألوانا من هذا اللهو فيها حيوية التجربة وحرارة الواقع ، ترجح الرأى القائل ، ان الموصوفات التى تناولها الشاعر ترتبط بالكثير من حقائق حياته ..

وحتى اذا لم يكن هذا الرأى صحيحا فان الذى لا شك فيه ان مجتمع شاعرنا لم تكن تنقصه هذه الألوان وان هذا الشعر كان صدى منظوما لها ..

بقى ان نتتبع بعض الصور والتعبيرات التى غلبته نشأته العلمية والفقهية على اصطناعها ، فسرت فيها بعض كلمات وتعابير صدرت من ينابيع ثقافته وبيئته كهذه التى نجدها فى النماذج التالية :

رقيم خد نام عن ساهر ما أجدر النوم بأهل الرقيم

***

وكم قال للصهباء انى حالف فقالت له الصهباء انك حانث
وما العيش الا للذى هو ما كث على غيه أو للذى هو ناكث

***

أقلعت والبحر قد لانت شكائمه جدا وأقلع عن موج وازباد
فعاد ـ لاعاد ـ ذا ريح مدمرة كأنها أخت تلك الريح فى عاد
وقد رأيت به الأشراط قائمة لأن أمواجه تجرى باطراد
ولا تلاوة الا ما نكرره من مبتدا النحل أو من منتهى صاد
ونحن فى منزل يسرى بساكنه فاسمع حديث مقيم بيته غاد
أبيت ان بت منه فى مصورة من ضيق لحد ومن اظلام الحاد
لا يستقر لنا جنب بمضجعه كان حالاتنا حالات عباد
فكم يعفر خدا غير منعفر وكم يخر جبين غير سجاد
حتى كأنا وكف النوء يقلقنا دراهم قلبتها كف نقاد

فاننا نقرأ فى هذه المختارات كلمات أهل الرقيم وقوم عاد واشراط الساعة ومبتدا النحل ومنتهى صاد والحنث والنكث والالحاد وحالات العباد الى غير ذلك .

كما يطالعنا الكثير من هذه الكلمات والتعبيرات في ديوانه وهذا كله مما يدخل في صناعة الفقه والجدل الديني أكثر مما يدخل في صناعة الشعر .

وشاعرنا جم الوفاء لشيوخه ويطالعك في ديوانه بالكثير من مدائحه فيهم ، ومن شعره في شيخه الحافظ السلفي هذه الأبيات :

وجبين كشارق الشمس يهدى بسناه من أتلفته الطريق
شيم ما جرت على خاطر الدهر ولا حاز مثلها مخلوق
أيها الحافظ الذى حفظ الدين فما للهوى له تطريق
بك يستعذب الصيام ويهوى الفطر للناظرين والتشريق

ولقد كان أغلب اقامة شاعرنا بالاسكندرية ولهذا أجاد وصف السفن التى كان يراها غادية رائحة في مينائها الكبير ، وكذلك كان يشهدها وهي تصنع على شواطيء المدينة ، هذا فضلا عن تأثره بركوبها في رحلاته العديدة ومن جيد وصفه لها هذه الأبيات :

كل نون من المراكب فيها ألفات مصفوفة للصوارى
تقسم الماء والهواء لساق وجناح من عائم طيار
وهي ضدان من جوانح ليل قد أقيمت ومن جناحى نهار
صورة كالفيول لولا قلوع أبرزتها في صورة الاطيار

فاذا انتقلنا معه في زيارة للنيل وشاءت شاعريته أن يصف لنا غروب الشمس فانه يمتعنا بأمثال هذه الصورة الرائعة :

أنظر الى الشمس فوق النيل غاربة
وانظر لما بعدها من حمرة الشفق
غابت وألقت شعاعا منه يخلفها
كأنما احترقت بالماء في الغرق
وللهلال فهل وافى لينقذها
في اثرها زورق قد صيغ من ورق ؟

على انه يلفت نظرنا بانسانيته العالية في قصيدته الدالية التى استشهدنا بها قبل قليل ، ذلك اننا نجد فيها روح الأخوة التى ربطت بينه وبين رفاق السفينة على رغم اختلاف جنسياتهم ، كما اننا نحس احتراقه شوقا الى مدينته الجميلة ــ الاسكندرية ــ والى معالمها العديدة كالمنارة والباب القديم بل ونصل معه الى قمة الشعور بالمشاركة الانسانية عندما يكون هذا المعلم ، « كنيسة من كنائس النصارى » وشاعرنا كما نعرف مسلم وذو ثقافة اسلامية ...

يا اخوتى ولنا من ودنا نسب ... على تباين آباء وأجداد
متى تنور آفاق **المنارة** لى ... بكوكب فى ظلام الليل وقاد
وأستمد من **الباب القديم** هوى ... عن **الكنيسة** فيه جل اسنادى

وقبل أن نختتم هذه الصورة الموجزة لشاعرنا القديم نحب أن نشير الى قصيدته المشهورة والتى سبق لنا أن أشرنا اليها والتى مطلعها :

سافر اذا ما شئت قدرا ... سار الهلال فصار بدرا

فانها أوفر قصائده دلالة على نفسيته وتصويرا لحياته ونحن اذ نجتزىء منها الأبيات التالية انما نحاول بقدر الطاقة أن نستكمل الصورة التى نريد رسمها للشاعر الشاب ...

وصلا اذا امتلأت يداك ... فان هما خلتا فهجرا
فالبدر أنفق نوره ... لما بدا ثم استسرا
مدت الى الأربعون يدا ... وقد قهقرت عشرا (١)
واستحدثت فى لمتى ... نقطا فهلا كن حبرا
ما قلت أف .. فانها ... شرر بأف .. يعود جبرا
وكفاك انى ان نظرت لها ... نظرت النجم ظهرا (٢)
كان الشباب الغض ليلا ... فاستنار الشيب فجرا
ولئن تقلب بى الزمان كما ... اشتهى بطنا وظهرا
فبما قتلت صروفه ... وقتلته جلدا وصبرا
غاض الوفاء وفاض ما ... ء الغدر أنهارا وغدرا
فانظر بعينك هل ترى ... عرفا وليس تراه نكرا ؟
خلق جرى من آدم ... فى نسله وهلم جرا

ونشهد فى البيتين التاليين من هذه المقطوعة سمة من سمات السكندريين الباقية الى الآن ، وهى الجرأة والاستهانة بالصعاب ، ذلك حيث يقول :

ومروعى بالبحر يحـ ... ـسب اننى ارتاع بحرا
أو ما درى انى بتسـ ... ـهيل المصاعب منه أدرى ؟

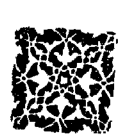
هذا وقد توفى ابن قلاقس فى أثناء رحلة له « بعيذاب » وهى بلدة على شاطىء البحر الأحمر سنة ٥٦٧ هـ عن اثنين وثلاثين عاما تقريبا .

وله ديوان شعر بالمكتبة الأهلية بباريس وله كذلك ديوان مختصر نشره الشاعر خليل مطران بالاسكندرية منذ ستين سنة .

---

(١) أى أنه فى الثلاثين من عمره .

(٢) المثل البلدى يقول : «شاف النجوم فى الظهر» ويضرب فيمن قاسى الكثير .



المراجع الخاصة بالقسم الأول

١ ـ الكتب

١ ـ مصر والشرق الأدنى القديم . تأليف الأستاذ الدكتور نجيب ميخائيل .

٢ ـ معارك الاسكندرية . تأليف الأستاذ الدكتور صديق شيبوب .

٣ ـ الاوديسة . تأليف هوميروس ترجمة الأستاذ أمين سلامة .

٤ ـ معجم الأعلام فى الأساطير اليونانية .

٥ ـ مصر البطلمية . تأليف الأستاذ الدكتور ابراهيم نصحى طبعة أولى .

٦ ـ شعر الرعاة . ترجمة الأستاذ محمد صقر خفاجه .

٧ ـ شعر الاسكندرية . ترجمة الأستاذ محمد صقر خفاجه .

٨ ـ الاسكندر الأكبر . تأليف الأستاذ عزيز خانكى .

٩ ـ البحر المتوسط . تأليف أميل لودفيج ترجمة الأستاذ عادل زعيتر .

١٠ ـ تاريخ الاسكندرية . تأليف أساتذة قسم التاريخ بكلية آداب الاسكندرية .

١١ ـ تاريخ الاسكندرية . تأليف الدكتور السيد عبد العزيز سالم .

١٢ـ صفحة من تاريخ القبط	تأليف مجموعة من الباحثين باشراف الدكتور مراد كامل
١٣ـ البصير فى خمسين سنة	تأليف مجموعة من الباحثين باشراف جريدة البصير .
١٤ـ مصر من الاسكندر حتى الفتح العربى .	ترجمة الاستاذين الدكتورين محمد عواد حسين وعبد اللطيف أحمد .
١٥ـ قصة الحضارة تأليف وول ديورانت تر .	ترجمة الأستاذ محمد بدران وآخرين .
١٦ـتاريخ الأمة القبطية .	تأليف ل . بوتشر ترجمة مجلة المقتطف .
١٧ـ موجز تاريخ القبط .	تأليف وليم ورل ترجمة باشراف الدكتور مراد كامل .
١٨ـ فتح العرب لمصر .	تأليف بطلر ترجمة الأستاذ محمد فريد أبو حديد .
١٩ـ مصر والامبراطورية الرومانية .	تأليف الدكتور عبد اللطيف أحمد على .
٢٠ـ فتوح مصر .	تأليف ابن عبد الحكم .
٢١ـ الخطط .	للمقريزى .
٢٢ـ مصر فى عهد الولاة .	للدكتورة سيدة الكاشف .
٢٣ـ الأدب في عهد الولاة .	للدكتور محمد كامل حسين .
٢٤ـ حسن المحاضرة .	للسيوطى .
٢٥ـ جامعة الاسكندرية .	للدكتور ابراهيم جمعة .

٢ ـ الصحف والمجلات :

١ ـ البصير عدد ٧ من أكتوبر ١٩٦١ مقال للأستاذ أندريه أندراوس ٠

٢ ـ المجلد الخامس من مجلة كلية آداب الاسكندرية مقال للأستاذ الدكتور حسن عون ٠

٣ ـ الحولية الخامسة لكلية آداب عين شمس مقال للأستاذ الدكتور محمد محمود السلاموني ٠

٤ ـ مجلة كلية آداب الاسكندرية العدد ١٥ مقال للأستاذ الدكتور محمد محمود السلاموني ٠

٥ ـ مقال للأستاذ صديق شيبوب عن تكوين جمهورية أندلسية بالاسكندرية ٠

● تفضل الأستاذان الفاضلان الدكتور حسن عون الأستاذ بجامعة الاسكندرية والدكتور محمد محمود السلاموني الأستاذ بجامعة عين شمس والمنتدب بجامعة الاسكندرية بابداء بعض الملاحظات التى استفدت منها كثيرا فى كتابة هذا القسم من البحث ٠



المراجع الخاصة بالقسم الثانى

المراجع القديمة :

١ ـ جريدة القصر وجريدة أهل العصر قسم شعراء مصر (جزآن) ·
تأليف العماد الاصفهاني وتحقيق الأستاذ أحمد أمين وآخرين ·

٢ ـ الرسالة المصرية لأمية بن عبد العزيز بن أبى الصلت ·
بتحقيق الأستاذ عبد السلام هارون ·

٣ ـ وفيات الأعيان لابن خلكان ·

٤ ـ فوات الوفيات لابن شاكر الكتبى ·

٥ ـ بدائع البدائه لعلى بن ظافر ·

٦ ـ معجم الأدباء (ارشاد الاريب فى معرفة الأديب) لياقوت الرومى
نشرة محمد فريد رفاعى ·

٧ ـ معجم البلدان لياقوت الحموى ·

٨ ـ رحلة ابن جبير ·

٩ ـ ديوان ابن قلاقس نشر خليل مطران ·

١٠ـ مسالك الأبصار لابن فضل الله العمرى ·

١١ـ شذرات الذهب فى اخبار من ذهب للعماد الحنبلى ·

١٢ـ مفرج الكروب فى أخبار بن أيوب لابن واصل ·
نشر الدكتور جمال الدين الشيال ·

١٣ـ الغصون اليانعة فى محاسن المائة السابعة لموسى بن سعيد ·
بتحقيق الأستاذ ابراهيم الابيارى ·

١٤ـ نفح الطيب فى غصن الاندلس الرطيب الأجزاء ٢ و ٣ و ٤
لابن المعرى ·

١٥ـ حسن المحاضرة للسيوطى ٠
١٦ـ البداية والنهاية لابن الاثير ٠
١٧ـ صبح الاعشى للقلقشندى ٠
١٨ـ الطالع السعيد لكمال الدين الأدفوى ٠
١٩ـ فتوح مصر لابن عبد الحكم ٠
٢٠ـ خطط المقريزى ٠

المراجع الجديدة :

١ ـ صفحة من تاريخ القبط باشراف الدكتور مراد كامل ٠
٢ ـ فتح العرب لمصر تأليف الدكتور بتلرو ترجمة الأستاذ محمد فريد أبو حديد ٠
٣ ـ الاسكندرية للدكتور السيد عبد العزيز سالم ٠
٤ ـ معارك الاسكندرية للأستاذ صديق شيبوب ٠
٥ ـ الحياة الأدبية فى عهد الحروب الصليبية للدكتور أحمد بدوى ٠
٦ ـ أدب مصر الفاطمية للدكتور محمد كامل حسين ٠
٧ ـ أدب الاسكندرية فى العصرين الفاطمى والايوبى للأستاذ أحمد محمد النجار رسالة مخطوطة بكلية الآداب بالاسكندرية نال بها صاحبها جائزة واصف غالى ٠
٨ ـ مصر فى عهد الولاة للدكتورة سيدة الكاشف ٠
٩ ـ الأدب فى عهد الولاة للدكتور محمد كامل حسين ٠
١٠ـ مقال للأستاذ حسن عبد الوهاب عن الاسكندرية فى العصر الاسلامى ٠
(عدد يناير ١٩٤٧ من مجلة الكتاب) ٠

فهرس





الدار القومية للطباعة والنشر







